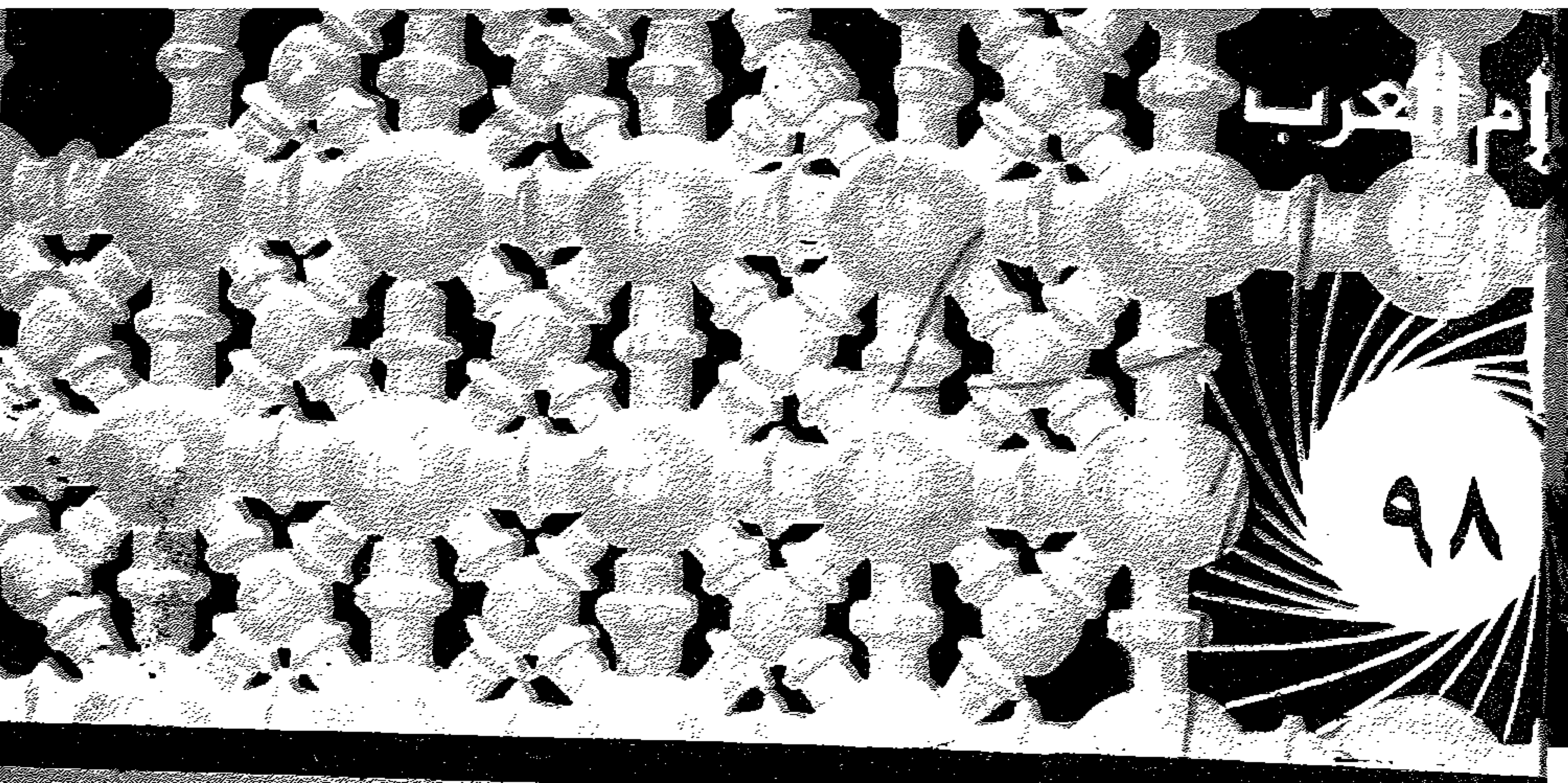


إبراهيم بن أدهم

شيخ الصوفية

بقلم: الدكتور عبد الحليم محمود

الهيئة
المصرية العامة
للتأليف والنشر

أعلام العرب

(٩٨)

إبراهيم بن أدهم

شيخ الصوفية

بقلم :

الدكتور عبد الحليم محمود

الهيئة المصرية العامة للكتاب

دار التأليف والنشر

١٩٧٢

مقدمة

التصوف والحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله رب العـالمين والصـلاة والسـلام على أشرف المرسلين ، سيدنا ومولانا محمـد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين . وبعد :

ان من الحقائق التى لا مرية فيها : أن الانسان لا يتأتى له أن يلج باب الله ، أو يسـير فى الطريق اليـه ، الا بالعبـودية الخاصة لله وحده لا شريك له . فاذا ما تمخضت العبـودية لله سبحانه ، وأصبح الانسان من عباد الله المخلصين ، وحقق بذلك: « اياك نعبد ، واياك نستعين » . فان الله سـبحانه لا يجعـل للشيطان عليه من سبيل :

«ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا(١)»

(١) الاسراء : ٦٥

ويعترف ابليس بأنه عاجز عن أن يضل من حقق العبودية الصادقة لله سبحانه فيقول :

« فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين (١)» ويقول :

« رب بمـــا أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين (٢) »

واذا ما حقق الانسان العبودية لله ، فان الله يتولاه بالامداد بالمعرفة ، انه سبحانه يقول عن موسى وفتاه :

« فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمنـــاه من لدنا علما (٣) »

انه حقق العبودية ، فكان ثمرة ذلك أن يغمره الله بالرحمة ، وأن يفيض عليه العلم ..

وليست المعرفة وحدها هى ثمرة التحقق بالعبودية ، بل ان للتحقق بالعبودية ثمارا كثيرة سامية ؟

فأيوب عليه السلام ، يقول الله عنه :

---

(١) ص آية : ٨٢ ، ٨٣

(٢) الحجر : ٣٩ ، ٤٠

(٣) الكهف آية : ٦٥

« واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه ، أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب .. اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب .. ووهبنا له أهله ، ومثلهم معهم ، رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث انا وجدناه صابرا ، نعم العبد انه أواب (١) » .

ولقد حقق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العبودية كاملة تامة ، لقد حققها فى ذروتها ، فكانت صلاته ، وكان نسكه، وكانت حياته بأكملها ، وكان موته ، لله رب العالمين .. لا شريك له :

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (٢) ».

لقد حققها موفورة تامة ، فآتاه الله عز الدنيا والآخرة .

ومتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واقتداء به ، سار الصوفية على الدرب ، يقول صاحب « عوارف المعارف » .

الصوفى : هو الذى يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوائب النفس..

ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره الى مولاه .. فبدوام

---

(١) ص آية : ٤١ ـ ٤٤
(٢) سورة الأنعام آية ١٦٢ ، ١٦٣

الافتقار ينقى من الـــكدر .. وكلمـــا تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة ، وفر منها الى ربه ..

فبدوام تصفيته جمعيته ، وبحركة نفســـه تفرقته وكدره ، فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه ، قال الله تعالى :

« كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط (١) » .

وهذه القوامية لله على النفس ، هى التحقق بالتصوف (٢)»

ويقول فى موضع آخر :

« والصوفى يضـــع الأشـــياء مواضـــعها ، ويدبر الأوقات والأحوال كلهـــا بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه ، ويستر ما ينبغى أن يستر ، ويظهر ما ينبغى أن يظهر ، ويأتى بالأمور فى مواضعها ، بحضور عقل ، وصحة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق واخلاص (٣) » .

لقد أخذ الصوفية أنفسهم بالتأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما دق من الأمور ، وما وضح منها .. وفى اليسير من أعمالهم ، والعظيم منها .. ومن أمثله ذلك .

---

(١) سورة المائدة آية : ٨

(٢) عوارف المعارف جـ ١ ص ٢٠٨ بتحقيقنا

(٣) عوارف المعارف جـ ١ ص ٢٣٢ بتحقيقنا .

فى الجهاد :

ولا يتأتى أن نذكر تاريخا مفصلا لجهاد الصوفية الحربى ، ولكننا نكتفى هنا ببعض الأمثلة :

كان شقيق البلخى ، وهو من قمم الصوفية الشامخة ، يسارع الى خوض المعارك .. لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه .

انظر اليه : خائضا المعارك ، محاربا العدو ، مسلحا بايمانه ، وثقته فى الله ، وعدته الحربية .. شاهرا سيفه ، فارسا بكل ما تتطلبه كلمة الفروسية من معنى ، هادئا ، مطمئنا ، كامل الثقة فى الله .

ولقد وصلت ثقته بالله ، الى حد أنه — وهو لا يرى الا سيوفا مصلتة ، ورقابا تقطع ، ورءوسا تسقط ، يقول لمن بجواره فى هذا الجو :

كيف ترى نفسك ؟ أترى نفسك فى سعادة تشبه سعادتك فى الليلة التى زفت فيها امرأتك اليك ؟

فأجابه الذى بجواره : لا والله .

فقال شقيق : لكنى والله .. أرى نفسى فى هذا اليوم ، مثلها فى الليلة التى زفت فيها امرأتى الى .

لقد كان سعيدا بجهاده .. ومات شهيدا فى معركة الشرف والبطولة فى ساحة الحرب والجهاد .

وشخص آخر ــ هو من قمم الصوفية أيضا ــ انه حاتم الأصم :

كان يدخل المعارك ، ويخوضها فى غير خوف ولا فزع .. وما كانت نفسه تطير اشعاعا من الأبطال .. وما كان يقول لها : لن تراعى ..

لقد كان كيانه كله فى ثقة مطلقة بالله .. وهذه الثقة تتمثل أجمل ما يكون التمثل ، حينما أخذوه أسيرا ، وطرحوه أرضا ، وجثم العدو على صدره ليذبحه .

انه يصف شعوره وهو فى هذه الحالة فيقول :

« لم يشتغل به قلبى ، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى فى .. فبينما هو يطلب السكين التى يذبح بها ، أصابه سهم فقتله .. وقمت سليما معافى ، قام سليما معافى ، ليعاود المعركة من جديد .

واذا قفزنا فى ساحة الزمن قفزة واسعة ، فوصلنا الى معركة المنصورة ، فاننا نجد كبار المؤمنين ، وصفوة الصوفية فى قلب المعركة .

لقد تركوا بيوتهم وأسرهم ، وهبوا مندفعين الى المنصورة ،

ليساهموا فى النصر ، والاستشهاد فى سبيل الله ، ولتكون الجنة تحت ظلال سيوفهم .

ولقد كان — وهذا له أهميته الخاصة — أبو الحسن الشاذلى — وهو من صفوة الصفوة الصوفية — قد تجاوز الستين ، وكان قد كف بصره ، ومع ذلك فانه ترك بيته ، وذهب الى المنصورة ، مساهما فى المعركة بقدر استطاعته .

لقد كانت المعركة شغله بالنهار ، وشغله بالليل .. لقد كانت تشغله مستيقظا ، فيمر بسمته الوقور ، وبهيبته المستمدة من تقواه ، وبالنور يشرق من وجهه ، بين الجنود مشجعا ، حاثا ، مبشرا بالنصر وبالجنة ، فاذا ما جنه الليل ، أخذ يبتهل الى الله سبحانه وتعالى ، متضرعا ، خاشعا ، راجيا التوفيق والنصر للأمة الاسلامية .

وفى ليلة من الليالى ، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى رؤيا طويلة — وأصبح رضى الله عنه يبشر بالنصر ..

ولم تكن هذه هى الموقعة الأولى التى ساهم فيها أبو الحسن الشاذلى — رضى الله عنه — ولم تكن الأخيرة .

واذا ما قفزنا مرة أخرى — فى ساحة الزمن — قفزة واسعة ، فاننا نلتقى بالصوفى الشهير : عبد القادر الجزائرى .

كان من كبار الصوفية ، ومن كبار القادة فى الحرب ، ولقد

حارب الاستعمار فى الجزائر ، وفعل بايمانه القوى ، وصوفيته العميقة الأعاجيب ، فى الشجاعة والاقدام .

ولقد بدأ الحرب بأفراد قلائل ، سرى ايمانه واقدامه فيهم، فتمثلت فيهم الشجاعة فى أسمى مظاهرها ، وأخذ عددهم يزداد شيئا فشيئا على مر الأيام .

أما أسلحتهم : فقد كانت ما يأخذونه من أسلحة العدو .

ولقد وجه الأمير عبد القادر النداء تلو النداء للأمة الاسلامية ، من أجل العون المالى ، والانسانى ، ومن أجل العون فى العتاد ، فكانت المساعدات التى قدمت اليه مخجلة يندى لها الجبين .

ولم تشعر الأمة الاسلامية ، بأنها أمة واحدة ، وكأنها لم تسمع ولم تقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

« ان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون (١) » .

وقوله تعالى :

« وان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون (٢) » .

ان الأمة الاسلامية لم تتجاوب معه تجاوب الاخوة ، وكأنها لا تشعر بقوله تعالى :

---

(١) سورة الانبياء آية : ٩٢

(٢) سورة المؤمنون آية : ٥٢

« انما المؤمنون اخوة (١) » .

ولا تحس بالاحساس الاسلامى .

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ولا يخذله (٢)»

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (٣) » .

«ترى المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، كالجسد الواحد ، اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (٤)»

ولم يثن كل ذلك الأمير عبد القادر ، عن متـابعة الحرب والكفاح ضد المستعمر .. وحينما أسر ـــ كرمه الأعداء أنفسهم، لشجاعته وشهامته ومروءته ـ ولما حالت الظروف القاهرة بينه وبين الجهاد والتضحية الحربية ـــ وذلك بعد الأسر ـــ مكث فى دمشق يدرس التصوف ، متخذا ـــ الفتوحات المـكية ـــ كتابه المفضل فى الشرح والتفسير .

ولقد طبع هذه الفتوحات ، وفى أثناء اقامته بدمشـق ألف كتاب المواقف ، وهو كتاب فى التصوف عريق ، بين فيه وجهـة النظر الصوفية فى مختلف الموضوعات .

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٠
(٢) مسلم
(٣) الامام البخارى
(٤) رواه البخارى

فى التزام الشريعة :

أما فيما يتعلق بالتزام الشريعة ، فاننا نبتدىء بذكر كلمة « للامام الكامل ، الفقيه الأصولى ، المفسر ، الاسفرايينى » صاحب كتاب : « التبصير فى الدين » — وهو من أئمة أهل السنة ، المعنيين أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة . انه يذكر ما يمتاز به أهل السنة ، عن غيرهم من الخوارج ، والروافض والقدرية فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو :

« علم التصوف والاشارات ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر : « أبو عبد الرحمن السلمى » من مشايخهم قريبا من ألف ، وجمع اشاراتهم وأحاديثهم .. ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب الى شىء من بدع « القدرية ، والروافض ، والخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشيئة ، والخلق والتقدير ،

الى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد » .

بعد هـذا نبدأ فى النظر الى طريق التصـوف ، وصـلته بالشريعة :

يقول الامام الغزالى :

« ان الطريق الى ذلك انما هو : تقديم المجاهدة ، ومحـو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمـة على الله تعالى .

ومهما حصـل ذلك ، كان الله هو المتـولى لقلب عبـده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

واذا تولى الله أمر القلب ، فاضت عليـه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمـة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الالهية ، فليس على العبد الا الاسـتعداد ، بالتصفية المجردة ، واحضار الهمـة ، مع الارادة الصـادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعـالى من الرحمة » .

وعن هذا الطريق ، يقول ابن خلدون :

« وقد كان الصحابة رضى الله عنهم على مثل هذه المجاهدة ،

وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ ، لكنهم لم يقع لهم بهـا عناية .

وفى فضائل أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، رضى الله عنهم كثير منها ، وتبعهم فى ذلك أهل الطريقة ، ممن اشـتملت رسالة القشيرى على ذكرهم ، ومن تبع طريقتهم من بعدهم » .

هذا فيما يتعلق بالطريق :

أما فيما يتعلق بالموضوع ، والشـعور ، والأحوال .. فان الصوفية ـــ على وجه العموم ـــ نبهوا فى صور حاسـمة الى وجوب التزام الشريعة ، يقول أبو الحسن الشـاذلى رضى الله عنه :

« من دعا الى الله تعالى ، بغير ما دعا به رسول الله صـلى الله عليه وسلم فهو بدعى » .

ويقول :

« اذا لم يواظب الفقير على حضور الصـلوات الخمس فى الجماعة ، فلا تعبأ به » .

ومن أجمل كلماته فى هذا ، قوله :

« ما ثم كرامة أعظم من كرامة الايمان ومتابعة السـنة .. فمن أعطيهما ، وجعل يشتاق الى غيرهما ، فهو عبد مفتر كذاب ،

أو ذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا ، فجعل يشتاق الى سياسة الدواب ، وخلع الرضا » .

وكل الصوفية ينهجون هذا النهج .. ومن هؤلاء مثلا : أبو يزيد البسطامى الذى يقول فى قوة حاسمة ، وفى منطق صادق :

« لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرتقى فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة » .

ولقد تحدث الامام الجنيد أكثر من مرة ، فيما يتعلق بالصلة بين التصوف والشريعة .. ومما قاله فى ذلك :

« الطرق كلها مسدودة على الخلق ، الا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم ، واتبع سنته ، ولزم طريقته » .

وقال أيضا :

« من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لايقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

ولقد كان الامام الغزالى ، فى سلوكه ، وفى قوله .. فى

حياته الخاصة والعامة ، يلتزم الشريعة ، ويقول : ان المحققين قالوا :

« لو رأيت انسانا يطير فى الهواء ، ويمشى على الماء ، وهو يتعاطى أمرا يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان » .

والواقع : أن المثل الأعلى للصوفية على بكرة أبيهم ، انما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم يحاولون باستمرار أن ينهجوا نهجه ، وأن يسيروا على منواله — فهو امامهم الأسمى فى كل ما يأتون ، وما يدعون وهم يتابعونه مهتدين فى ذلك بقول الله سبحانه وتعالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » .

وبعد : فقد تبينا مما سبق أن الطريق الى الله هو التحقيق بالعبودية ، وقد سار الصوفية — ومنهم ابن أدهم — فى هذا الطريق ، فأثمر لهم ثمارا سامية كثيرة .

منها : الجهاد .

ومنها : التزام الشريعة .

وماذا بعد ذلك ؟

أما عن الصـوفية والعلم :

فان الصوفية يمثلون العلم الاسـلامى فى قمته وفى جميع فروعه : فى الفقه ، وفى التفسير ، وفى الحديث ، وفى الأخلاق ..

واذا أردنا أن نتحـدث عن القمة العلمية الشـامخة التى لا تضـارع فيما اجتمع لديهـا من علوم مدروسة مرواة محكمة فيها الاتقان ، والاستنتاج المتبصر ، والتبصر المتابع ، والاتباع الواعى ، أعنى شـخصية الشيخ الأكبـر محيى الدين ، فان الحديث عنها يستغرق مجلدات .

وان مقارنات مؤرخى الفكر بين الشـيخ الأكبر وغيره من الغربيين والشرقيين تصعد به الى القمـة .

والشيخ الأكبر يذكر دائما بحجـة الاسـلام الغزالى الذى جمع فى احيائه ، أربعين كتابا كل منها له استقلاله وله ذاتيته ، وألف منها ــ فى احكام محكم ــ كتابه احياء علوم الدين .

ولقـد انهار تحت قلمه فى سـهولة ويسر عبـاقرة الفكر الفلسفى فتهـافتوا وانهـاروا ، وأتى عليهم كتـابه النفيس : « تهافت الفلاسفة » .

وأخمد حجة الاسـلام بدعة الفلسـفة وعبث الفلسفة فى الشرق الاسلامى . وللامام الغزالى أكثر من ثمانين كتابا ورسالة فى الأصول والفقه والتوحيد والفلسفة والتصوف .

ولا تزال كتبه تقرأ وتتـداول وعليها دائما طابع النضرة : طابع الخـلود .

والصورة الجميلة فى الصوفية ـ فى الأغلب الأعم ـ هى صورة الجنيد :

لقد كان الكتبة (اللغويون والأدباء) يحضرون مجلسـه لألفاظه والفقهاء لتقريره .

والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه .

والمتكلمون لتحقيقه .

والصوفية لارشاداته وحقائقه .

يقول صاحب الرسالة القشيرية عنه :

وكان فقيها على مذهب « أبى ثور » وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة .

ويروى صاحب الرسالة القشيرية عن أبى الحسين على بن ابراهيم الحداد يقول :

حضرت مجلس القاضى أبى العباس بن شريح ، فتـكلم فى الفروع والأصول بكلام حسن عجبت منه ، فلمـا رأى اعجابى قال :

أتدرى من أين هذا ؟

قلت : يقول به القاضي .

فقال : هذا ببركة مجالسة أبى القاسم الجنيد .

واذا ذكر الجنيد ذكر أستاذه : الحارث المحاسبى ، وقد كان الحارث مثقفا فى الدين والعربية ، كأحسن ما يكون المثقف لقد كان فقيها ، وكان محدثا ، وكان متكلما ، وكان عالما فى الأخلاق ، وكان صوفيا .

ولقد دخل فى قوة فى كل المشاكل التى وجدت فى عصره باحثا مرشدا مجادلا هاديا الى الحق ، والحق فى نظره هو ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

وألف المحاسبى الكثير من الكتب فى شتى مجالات العلوم .

وليأخذ الانسان أى صوفى من هؤلاء الذين ذكرهم السلمى فى طبقاته ، أو الذين ذكرهم القشيرى فى رسالته ، أو الذين تحدث عنهم صاحب الحلية : فسيجد أنهم قوم اتخذوا من العلم عبادة ، وعكفوا على دراسته تقربا الى الله سبحانه وتعالى .

وما كان علم الكتب هو غايتهم الأخيرة ، وانما ــ مع علم الكتب ــ كان طموحهم الى العلم الوهبى :

العلم الذى يمنحه الله لبعض عباده ، العلم الذى سافر

موسى عليه السلام سفرة شاقة مجهدة ليلتقى فى نهايتها مع عبد من عباد الله تعالى علمه الله من لدنه علما .

يقول سبحانه عن موسى وفتاه :

« فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما »

وهو علم يمنحه الله لمن حقق له العبودية .

ولأن هذا العلم ــ وهو مطمحهم الأخير ــ لا يتأتى الا باخلاص العبودية لله ، ولأن اخلاص العبودية لله لايتأتى الا بأن يكون الاستغراق فى العمل : صلاة وذكرا وصياما .. من الأسس الجوهرية فى حياة الانسان : فانهم اتجهوا فى صورة موفقة الى العمل .

لقد أخذوا الكتاب بقوة ، وكانوا أتقياء : فأفاض الله عليهم من الهاماته ، واتسم مادونوه بطابع الروحانية ، واتسم بالنضرة، وكان طابعه أنه يزكو على مر الزمن . ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر فيما ورد من آثار عن ابراهيم بن أدهم . والصورة الحية المثالية لثمار الهاماتهم هى كتاب احياء علوم الدين لحجة الاسلام وكتاب الحكم لابن عطاء الله .

ولقد كان لكتبهم الأثر الكبير الواضح فى الهداية على مر العصور .

وقد يتساءل قوم : وماذا عن العمل والضرب فى الأرض واكتساب الرزق ؟

وابتــدىء فى هـــذا الموضــوع بذكر بعض ألقـــاب الصـــوفية :

القصار ، الوراق ، الخراز ، الخواص ، البزاز ، الحلاج ، الزجاجى ، الحصرى ، الصيرفى ، المقرىء ، الفراء .

وهذه ألقاب مأخوذة من مهن كانت لهم .

ولقد كان الصوفية كغـــيرهم ، منهم الفقـــير ومنهم الغنى ، ومنهم العازف عن الثراء العريض ، ومنهم أصحاب الثـــروات الضخمة، التى يؤدون فيها حق الله ، وينفقون منها فى سبيله، انهم يؤتون حق المال يوم حصاده : وفى أموالهم حق معلوم للســـائل والمحروم .

وهذا مثلا أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، وهو من صفوة الصفوة الصوفية ، كانت له مزارع .

ونقول « مزارع » بالجمع لنتابع فى هذا التعبير حـــديث المؤرخين عنه وكان له حصـــاد ، ودراس .. وكانت له ثيران .. وكان يتاجر ..

ومن دعائه المشـهور :

« اللهم وسع على رزقى فى دنياى ، ولا تحجبنى بهـا عن أخـراى » .

ومن دعائه بشأن الدنيا :

« اللهم اجعلها فى أيدينا ، ولا تجعلها فى قلوبنا »

والفـرق بين الصـوفية وغـيرهم فى هـذا هو أن الدنيا لا تستعبدهم ، وانما تستعبد غيرهم ..

انهم لا يلقون بقيادهم الا لله سبحانه وتعالى ، فلا يلقـون بقيادهم الى مال ، أو جاه ، أو منصب ، أو رياسة ، أو غير ذلك مما يذل له أهل الدنيا ، وأهل الأهواء ، الذين يتخذون دنياهم، وأهواءهم آلهة يعبدونها من دون الله .

انهم أغنياء أو فقراء قد تحققوا بقوله تعـالى :

« لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »

وابن عطاء الله السكندرى يقص فى كتابه الجميل : «لطائف المنن» قصة ثرى صوفى تحقق بالآية القرآنية الكريمة فلم يمنعه ثراؤه الضخم العريض أن يكون صوفيا .

يقول ابن عطاء الله :

« قال بعض المشايخ كان رجل بالمغـرب من الزاهدين فى الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذى يصيده يتصدق ببعضه ويتقوت ببعضـه ، فأراد بعض أصحاب هـذا الشيخ أن يسـافر الى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الشيخ :

اذا دخلت الى بلد كذا فاذهب الى أخى فلان ، فاقرئه منى السـلام ، وتطلب الدعاء منـه لى فانه ولى من أوليـاء الله تعـالى .

قال : فسـافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل فدللت على دار لاتصـلح الا للملوك فتعجبت من ذلك وطلبته فقيل لى : هو عند السلطان ، فازداد تعجبى ، فبعـد ساعة واذا هو آتى فى أفخر ملبس ومركب ، وكأنما هـو ملك فى موكبه .

قال : فازداد تعجبى أكثر من الأول .

قال : فهممت بالرجوع وعـدم الاجتمـاع به ، ثم قلت : لا يمكننى مخالفة الشيخ .

فاستأذنت فأذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد

والخدم والشارة الحسنة ، فقلت له : أخوك فلان يسلم عليك .

قال : جئت من عنده ؟

قلت : نعم . قال : اذا رجعت اليه قل له :

الى كم اشتغالك بالدنيا ؟ والى كم اقبالك عليها ؟ والى متى لاتنقطع رغبتك فيها ؟

فقلت : هذا والله أعجب من الأول ، فلما رجعت الى الشيخ، قال :

اجتمعت بأخى فلان ؟

قلت : نعم .

قال : فما الذى قال لك ؟

قلت : لا شىء .

قال : لابد أن تقول لى ؟

فأعدت عليه ما قال ، فبكى طويلا وقال : صدق أخى فلان، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده وعلى ظاهره ، وأنا أخذها من يدى وعندى اليها بقايا التطلع » . ا هـ

وفى نهاية هذه الكلمة نورد صورة لشخصية صوفية متكاملة

وان كانت مشهورة نوردها عن الطبقـات الكبرى للشـعرانى فى اختصـار .

يقول الامام الشعرانى ـ عن هذه الشخصية الصوفية ـ رضى الله عنه :

« ومنهم شيخنا وقدوتنا الى الله تعالى : الامام الصـالح الورع الزاهـد : شـمس الدين الديروطى ، ثم الدميـاطى ، الواعظ ..

كان فى الجامع الأزهر أيام السلطان قانصوه الغورى ، وكان رضى الله عنه ، مهابا عند الملوك والأمراء ومن دونهم ، زاهدا ورعا مجاهدا صائما قائما ، آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر .. وقد حضرت مجلس وعظه فى الجامع الأزهـر مرات ، فرأيتـه مجلسا تفيض فيه العيون ، وكان اذا تكلم أنصتوا بأجمعهم .. وكان يحضرها أكابر الدولة ، وأمراء الألوف ، فكان كل واحد يقوم من مجلسه ، متخشعا ، صغيرا ، ذليلا .. رضى الله عنه ..

وكان اذا مر فى شوارع مصر ، يتزاحم الناس على رؤيته، وكان من لم يحصل ثوبه ، رمى بردائه من بعيد على ثيابه ، ثم يأخذ رداءه فيمسح به على وجهه رضى الله عنه .

حط مرة على السلطان الغورى فى ترك الجهاد ، فأرسل السلطان خلفه ، فلما وصل الى مجلسه ، قال للسلطان : السلام

عليكم ورحمة الله وبركاته .. فلم يرد عليه .. فقال : ان لم ترد السلام فسقت وعزلت .. فقال : وعليكم السـلام ورحمة الله وبركاته .. ثم قال :

« علام تحط علينا بين الناس فى ترك الجهاد ، وليس لنـا مراكب نجاهد فيها ؟ . فقال : عندك المال الذى تعمر به .. فطال بينهما الكلام : فقال الشيخ للسلطان :

« قد نسيت نعم الله عليك ، وقابلتها بالعصيان .. أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك وباعوك من يد الى يد .. ثم من الله عليك بالحرية والاسلام .. ورقاك الى أن صرت سـلطانا على الخلق .. وعن قريب يأتيك المرض الذى لاينجع فيه طب، ثم تموت وتكفن ، ويحفرون لك قبرا مظلما ، ثم يدس أنفك هذا فى التراب ، ثم تبعث عريانا عطشانا جوعانا .. ثم توقف بين يدى الحكم العدل ، الذى لايظلم مثقـال ذرة .. ثم ينـادى المنادون : من كان له حق أو مظلمة على الغـورى فليحضر ، فيحضر خلائق لايعلم عدتها الا الله تعالى .. فتغير وجه السلطان من كلامه ، فقال كاتب السر وجماعة السلطان : « الفاتحـة : يا سيدى الشـيخ خوفا على السلطان ، أن يختل عقله ، فلمـا ولى الشيخ وأفاق السلطان ، قال :

« أئتونى بالشيخ : فعرض عليه عشرة آلاف دينار ، يستعين بها على بناء البرج الذى فى دمياط .. فردها عليه .. وقال : أنا

رجل ذو مال لا أحتاج الى مساعدة أحد .. ولكن ان كنت أنت محتاجا أقرضتك وصبرت عليك .. فما رؤى أعز من الشيخ فى ذلك المجلس ولا أذل من السلطان فيه .. هكذا كان العلماء العاملون ، وقد صرف على عمارة البرج بدمياط نحو أربعين ألف دينار ، ولم يساعده فيها أحد .. انما كان يعقد الأشربة ، ويتاجر فى الخيار شنبر ونحوه — رضى الله عنه — ولم يأخذ قط معلوم وظيفة من وظائف الفقهاء .. وكان ينفر طلبته من أكل أوقاف الناس وقبول صدقاتهم ، ويخبرهم أنها تسود وجه قلوبهم — رضى الله عنه — ..

وله مصنفات : منها شرح منهاج النووى فى الفقه ، وشرح الستين مسألة ، وكتاب القاموس فى الفقه ، وشرح قطعة من الارشاد لابن المقرى رضى الله عنه ..

وكان متواضعا مع من قرأ عليهم القرآن وهو صغير ، ولم يصده ما وصل اليه من العلوم والمعارف والشهرة عن ذلك ..

ولقد رأيته مرة راكبا فنزل وقبل يد أعمى ، تقوده ابنته فقلت له : من هذا ؟ .. فقال :

هذا أقرأني وأنا صغير جزئين من القرآن — رضى الله عنه — فما أقدر قط أن أمر عليه وأنا راكب ..

توفى رضى الله عنه فى ربيع الأول سنة احدى وعشرين

وتسعمائة وله من العمر نيف وخمسون سنة رضى الله عنه ودفن بزاويته بدمياط ، ودفن عنده الأخ العزيز العارف بالله تعالى سيدى أبو العباس الحريثى رضى الله عنه .

وبعد : فلعلنا قد أزلنا بهذه المقدمة — التى كان من الممكن أن تستفيض فتصير كتابا — بعض الشبه التى تحوم حول الصوفية بسبب الجهل بهم ، وجهدنا للتعريف بالامام ابراهيم بن أدهم رحمه الله ورضى عنه .

والله الهادى الى الصواب .

« ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم »

د . عبد الحليم محمود

الفصل الأول

حياته

حياته

لقد هيأ الله سبحانه لابراهيم بن أدهم خادما صوفيا هــو ابراهيم بن بشار .. وكان ابراهيم بن بشار هذا نابها ذكيــا طلعة ، فكان يحب باستمرار أن يستفيد من ابن أدهم الكثير من الفوائد ، وكان يسأله العديد من الأسئلة .. واننا لنــدين لابن بشار بالكثير من المعلومات عن ابراهيم بن أدهم ..

وتخير ابراهيم بن بشار لحظة مناسبة ليسأل ابراهيم بن أدهم عن حياته ، وهو يحدث عن ذلك فيقول :

قلت : يا أبا اسحاق ، كيف كان أوائل أمرك حتى صرت الى ما صرت اليه ؟ وما كان ابراهيم بن أدهم يحب أن يتحــدث عن نفسه .. انه كان صوفيا أصيلا ، والصــوفى الأصيل يحب دائما أن يكون بعيدا عن « أنا » .. والصوفى الأصيل يبتعــد بقدر استطاعته عن الحديث الشخصى عن نفســه .. ان ذلك

يجره الى البشرية المادية الحسية ، الى النفس ، الى الشخصية الفردية .. وذلك خروج من الجو الالهى : جو الاطلاق .. أو بتعبير أدق ، جو الفناء فى الله .. حيث تنمحى ارادته فى ارادة الله ، وحيث يسترسل مع الله على ما يحب ، وحيث العبودية الخالصة التى لا وجود لها ـ أو ينبغى أن تعتبر أن لا وجود لها ـ مع الرب جل وعلا .. أرأيت محبا مصادقا له شخصية مع محبوبه ؟ ..

أرأيت عابدا مخلصا له ارادة مع ارادة معبوده ؟..

أرأيت عبدا صادق العبودية له ظهور بجوار سيده ؟ ..

لقد وصل الأمر بالامام الشبلى ـ رضوان الله عليه ـ أنه سئل : لم سميت الصوفية بهذا الاسم ؟.. فقال : لبقية بقيت فيهم من نفوسهم ، ولولا ذلك لما تعلقت بهم الأسماء ..

ان الامام الشبلى حينما سئل هذا السؤال ، لم يأخذ فى مناقشة الاشتقاق ، أو الحديث عن النسبة .. ولم يذهب فى السؤال المذاهب المعتادة من أن أصل الكلمة كذا أو كذا ، أو أنها تنسب الى كذا أو كذا .. وانما تحدث بالصورة العميقة التى تليق بمكانته .. وكأنه يقول للسائل : انها مهازل صبيانية، أن يقف الانسان عند الاسم ، مناقشا فى نسبته أو أصله ، وانما الجدير بالعناية هو التوجيه الرشيد .. وأول خطوة فى هذا

التوجيه الرشيد هى تنبيه السالكين الى الله ، أن التخلص من أهواء النفس وشهواتها ، ونزعاتها ونزعاتها ، من صميم التصوف والتخلص من النفس فناء فى الله .. والتخلص من النفس تخلص من التاريخ الشخصى ، أو تخلص من « أنا » ..

ولكل هذه المعانى ، نفر ابراهيم بن أدهم من سؤال ابراهيم ابن بشار ، وقال له :

غير ذا أولى بك ..

ولكن ابراهيم بن بشار ، وهو لم يكن قد وصل بعد الى آفاق ابراهيم بن أدهم الصوفية السامية ، عاد فقال له :

يا أبا اسحاق ، ان رأيت ..

فقال له :

ويحك ، اشتغل بالله ..

فقال ابراهيم بن بشار :

كل ما قلته حق ، رحمك الله .. ولكن أخبرنى ، لعل الله ينفعنا به يوما ..

وحينما ذكر ابراهيم بن بشار النفع ، مشيرا الى :

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ..

تغير الموقف ، وأصبح الأمر ليس أمر حديث شخصى .. وانما هى قصة للهداية ، وللعبرة ، والعظة ..

وحينما يقصها ابراهيم بن أدهم ، فانه لا يقصها على أنها تاريخه الشخصى ، وانما على أنها عبرة وعظة ..

وبدأ ابراهيم بن أدهم يقول :

« كان أبى من أهل بلخ ، وكان من ملوك خراسان ، وكان من المياسير .. وحبب الينا الصيد فخرجت راكبا فرسى ، وكلبى معى .. فبينما أنا كذلك ثار أرنب أو ثعلب ، فحركت فرسى .. فسمعت نداء من ورائى :

ليس لذا خلقت ، ولا بذا أمرت ..

فوقفت أنظر يمنة ويسرة ، فلم أر أحدا .. فقلت : لعن الله ابليس .. ثم حركت فرسى ، فأسمع نداء أجهر من ذلك :

يا ابراهيم : ليس لذا خلقت ، ولا بذا أمرت ..

فوقفت أنظر يمنة ويسرة ، فلا أرى أحدا .. فقلت :

لعن الله ابليس ، ثم حركت فرسى ، فأسمع نداء من قربوس سرجى : يا ابراهيم ! ما لذا خلقت ، ولا بذا أمرت ..

فوقفت فقلت : أنبهت ، أنبهت .. جاءنى نذير من رب العالمين ، والله لا عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمنى ربى . .

فرجعت الى أهلى ، فخليت عن فرسى ، ثم جئت الى راع لأبى، فأخذت منه جبة وكساء ، وألقيت ثيابى اليه ، ثم أقبلت الى العراق .. أرض ترفعنى ، وأرض تضعنى ، حتى وصلت الى العراق ، فعملت بها أياما فلم يصف لى منها شىء من الحلال فسألت بعض المشايخ عن الحلال ، فقالوا لى :

اذا أردت الحلال فعليك ببلاد الشام ..

فصرت الى بلاد الشام، فصرت الى مدينة يقال لها المنصورة — هى المصيصة — فعملت بها أياما ، فلم يصف لى شىء من الحلال .. فسألت بعض المشايخ ، فقالوا لى :

ان أردت الحلال الصافى فعليك بطرسوس ، فان فيها المباحات والعمل الكثير ..

فتوجهت الى طرسوس ، فعملت بها أياما ، أنظر البساتين، وأحصد الحصاد .. فبينا أنا قاعد على باب البحر .. اذ جاءنى رجل ، فألح على أن أنظر بستانه ، فكنت فى بساتين كثيرة — فاذا أنا بصاحب البستان قد أقبل ومعه أصحابه ، فقعد فى مجلسه ، ثم صاح :

ياناظور ..

فقلت : هو ذا أنا ..

قال : اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه .. فذهبت

فأتيته بأكبر رمان .. فأخذ رمانة فكسرها ، فوجدها حامضة.. فقـــال :

ياناظور : أنت فى بستاننا منذ كذا وكذا ، تأكل فاكهتنا ، وتأكل رماننا ، لاتعرف الحلو من الحامض ؟.. قال ابراهيم :

قلت : والله ، ما أكلت من فاكهتكم شيئا ، وما أعرف الحلو من الحامض .

فأشار الى أصحابه ، فقال :

أما تسمعون كلام هذا ؟ ثم قال :

أتراك لو أنك ابراهيم بن أدهم ما زاد على هذا ..

فانصرف ، .. فلما كان من الغد ذكر صفتى فى المسـجد ، فعرفنى بعض الناس ، فجاء ومعه عنق من الناس .. فلما رأيته قد أقبل مع أصحابه اختفيت خلف الشجر ، والناس داخلون.. فاختلطت معهم وهم داخلون ، وأنا هارب ..

فهذا كان أوائل أمرى ، وخروجى من طرسوس الى بلاد الرمال ..

وروى يونس بن سليمان البلخى ، عن ابراهيم بن أدهم ، وزاد فى هذه القصة :

اذا هو على فرسه يركضه ، اذ سمع صوتا من فوقه :

يا ابراهيم ! ما هذا العبث :

« أفحسبتم انما خلقناكم عبثا ، وأنكم الينا لا ترجعون »

اتق الله ، وعليك بالزاد ليـوم الفـاقة .. فنزل عن دابته ، ورفض الدنيا ، وأخذ فى عمل الآخرة ..

وبعض هذه القصة يروى بالصورة التالية :

عن داود بن الجراح قال :

« كان ابراهيم بن أدهم ينظر كرما فى كورة غزة ، فجاءه صاحب الكرم ومعه أصحابه ، فقال : ايتنا بعنب نأكله ، فأتاه بعنب يقال له الخافونى .. فاذا هو حامض .. فقـال له صاحب الـكرم :

من هذا تأكل ؟.. قال : ما آكل من هذا ولا من غيره ..

قال : لم ؟ .. قال : لأنك لم تجد لى شيئا من العنب .

قال : فأتنى برمان .. فأتاه برمان ، فاذا هو حامض .. فقال:

من هـذا تأكل ؟.. قال : لا آكل من هـذا ولا من غيره ، ولكن رأيته أحمر حسنا فظننت أنه حلو .. فقال :

لو كنت ابراهيم بن أدهم ماعدا ..

قال : فلما علم أنهم عرفوه هرب منهم ، وترك كراه ـ أى أجره ..

وصورة حياة ابراهيم بن أدهم تزداد وضوحا بالنبأ الذى يرويه عباس بن الفضل المرعشى قال : لقيت عبد العزيز بن أبى رواد .. فتذاكرنا أمر ابراهيم بن أدهم ، فقال عبد العزيز :

« رحم الله ابراهيم بن أدهم .. لقد رأيته بخراسان ، اذا ركب حضر بين يديه نحو من عشرين شاكريا ، ولكنه — رحمه الله — طلب بحبوحة الجنة ..

ترك ابراهيم بن أدهم حياة الترف والنعيم والأهواء ، وطلب بحبوحة الجنة .. ولكنه لم يستقر فى مكان .. وانما كان دائم التنقل ، وربما سافر من بلد الى بلد آخر ، ثم عاد من جديد الى البلد الذى تركه .. وربما دخل بلدا فلم يهنأ بالعيش فيه ، ثم عاد اليه فنعم فيه بالحلال ، كما حصل له بالنسبة الى بلاد الشام ..

ويصور لنا تنقلاته المستمرة ، ما رواه شقيق البلخى قال :

« لقيت ابراهيم بن أدهم فى بلاد الشام ، فقلت :

يا ابراهيم : تركت خراسان ؟ ..

فقال :

ما تهنيت بالعيش الا فى بلاد الشام ، أفر بدينى من شاهق الى شاهق ، ومن جبل الى جبل .. فمن يرانى يقول : موسوس ، ومن يرانى يقول : هو حمال .. ثم قال لى :

يا شقيق ! .. لم ينبل عدنا من نبل الا بتحرى الحلال ، وألا يدخل جوفه شيء الا من حله ..

ثم قال :

يا شقيق ! .. اذا أنعم الله على الفقراء لا يسألهم يوم القيامة لا عن زكاة ، ولا عن حج ، ولا عن جهاد ، ولا عن صلة رحم .. انما يسأل هؤلاء المساكين ـــ يعنى الأغنياء ..

وتحرى ابراهيم بن أدهم للحلال ، يذكرنا بقصة سعد رضى الله عنه ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ابن عباس قال :

« تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم :

(يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا)

فقام سعد بن أبى وقاص ، فقال :

يا رسول الله ! .. ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال : يا سعد ! .. أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة .. والذى نفس محمد بيده ان الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ، ما يتقبل منه أربعين يوما .. وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » ..

ولقد كان ابراهيم بن أدهم من أشد الناس تحريا للحلال .. يقول أحد أصدقائه :

« وكان ابراهيم بن أدهم كبير الشأن فى باب الورع ، يحكى عنـه أنه قال : « اطب مطعمك ، ولا حرج عليـك أن لا تقـوم الليل ، ولا تصوم النهـار » ..

ومن أجل الحلال ، ومن أجل الورع سيطر ابراهيم بن أدهم على نفسه فأصبحت لا تشتهى الا ما يكون فى دائرة الحـلال الميسور ، لقد قيل له : ان اللحم قد غلا ، فقال : أرخصـوه .. وأنشد فى ذلك :

واذا غـلا شىء على تركتـه
فيـكون أرخص ما يكون اذا غلا

لقد غالب ابراهيم بن أدهم أهـواءه حتى تغلب عليهـا ، مستعينا بالله ، مستكفيا اياه .. يقول ابراهيم بن بشار : سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« وأما أهوائى فقد ـــ والله ـــ استعنت بالله عليها فأعاننى، واستكفيته سوء مغالبتها فكفانى ، فوالله ما آسى على ما أقبـل من الدنيا ولا ما أدبر منها » ..

ولكن سيطرته على نفسه لم تكن من السـهولة بمكان ، وهذا طبيعى .. فانه لا يتغلب على نفسه فيسلس له قيادها ، الا من هدى الله وعصم :.

وابراهيم بن بشار يقول :

« سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« أشد الجهاد جهاد الهوى ، من منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلائها ، وكان محفوظا ومعافى من أذاها ..

أخذ ابراهيم بن أدهم يضرب فى الأرض ، حارسا للبساتين ، أو حاصدا للزرع .. وهو فى كل ذلك لا يفتر عن ذكر الله .. يقول على بن بكار :

كان الحصاد أحب الى ابراهيم من اللقاط ، وكان سليمان الخواص لا يرى باللقاط بأسا ويلقط ، وكانت أسنانهما قريبة ، وكان ابراهيم أفقه ، وكان من العرب ، من بنى عجل ، كريم الحسب ، وكان اذا عمل ارتجز ، وقال :

اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا

وكان يلبس فى الشتاء فروا ليس تحته قميص ، ولم يكن يلبس خفين ولا عمامة .. وفى الصيف شقتين بأربعة دراهم ، يتزر بواحدة ويرتدى بأخرى ، يصوم فى السفر والحضر ، ولا ينام الليل .. وكان يتفكر ، فاذا فرغ من الحصاد أرسل بعض أصحابه ، فحاسب صاحب الزرع ، ويجىء بالدراهم لا يمسها بيده ، فيقول لأصحابه : اذهبوا كلوا بها شهواتكم ، فان لم يكن حصاد أجر نفسه فى حفظ البساتين والمزارع ، وكان يجلس فيطحن بيد واحدة مدى قمح .. قال ابراهيم :

يعنى قفيزين ..

ولابد لنا من وقفة مع تجربة ابراهيم بن أدهم النفسية :

لقد بدأ ابراهيم بن أدهم حياته فى ترف من العيش ، وفى نعيم من الدنيا : فقد كان والده من المياسير ، بل كان من بيت الملك ..

ونشـأ ابراهيم لذلك محاطا بكل أنواع الرعاية ، وانغمس ابراهيم فى كل ما تتيحه بيئته المترفة من ملاذ .. لقد عب منهـا ونهل ..

وفى لحظات ، لا تعد بالشهور ولا بالأيام بل ولا بالساعات. فى لحظات ـــ تعد بالدقائق ـــ انقلب ابراهيم ـــ فجأة ـــ من شاب مفتون بالدنيا ، قد تهيأله الشباب والفراغ والثراء ، فركض فى ميادين المتعة ، الى شاب يتجه بكل كيانه الى الله سـبحانه ، و يصبح ما بين طرفة عين وانتباهتها من أولياء الله .. يقول صاحب « طبقات الصوفية » عن ذلك :

« كان من أبناء الملوك والمياسير ، خرج متصيدا ، فهتف به هاتف أيقظه من غفلته ، فترك طريقته فى التزين بالدنيا ، ورجع الى طريقة أهل الزهد والورع .. كيف حدث هذا الانقلاب ؟ .. لقد حدث عنه ابراهيم بن بشار خادمه كما سـبق أن ذكرنا ..

ومســألة تحول ابراهيم بن أدهم من حال الى حال مســألة لها نظائرها فى التاريخ ..

فها هو ذا ـــ مثلا ـــ ســيدنا عمر ـــ رضى الله عنــه ـــ ذاهب لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضى على الاسلام ويزيله من الوجود ـــ فيما توهم ـــ فاذا بهداية الله تغمره فى لحظات ، فيتحول من جاهلية الى اسلام ..

وقد يظن بعض الناس أنه تحول مفاجىء فى الظاهر والباطن ، ولكن اذا تأملنا الظروف والملابسات ، رأينا أنه تحول مفاجىء واقعيا ، ولكنه تحول سبقته عوامل لا شعورية ، وبواعث عدة ، تتفق كلها فى توجيه الانسان وجهة الخير التى أحبها الله له ..

ان المادة والملاذ والشهوات لا تنتهى بالانسان الى الرضــا والطمأنينة والهدوء النفسى والسكينة .. كلا ..

وكثير من هؤلاء الذين ينغمسون فيها : كثيرا ما يكونون من أتعس خلق الله ، أرأيت الى هاتيك الممثــلات الجميــلات الثريات ، اللواتى ينغمسن فى الشــهوات والمــلاذ من مفرق رءوسهن الى أخمص أقدامهن ؟ ..

ألم تسمع أن هذه أو تلك قد انتحرت يائسة من أن تجــد سكينة النفس ؟ انهن الشقيات ، انهن اللواتى لم يرد الله لهن حسن الخاتمة ..

ولكن من بين المنغمسات فى الملاذ ، من أراد الله بهن حسن الخاتمـة ، فانتفضن انتفاضـة وضعتهن فى لحظات فى مرتبـة القديسات ..

ولعل القارىء قد سـمع عن : « مريم المجدليـة » التى انتفضت هذه الانتفاضة ، وذهبت الى المسيح عليه السـلام ، فغسلت رجليه بالدموع ، ومسحتهما بشـعر رأسها ، ولم تكف عن تقبيلهما ودهنهما بالطيب .. وغفر الله خطاياها على لسان السيد المسيح عليه السلام ، الذى وازن بينها وبين « سمعان » فرجحت كفتها ..

وهل قرأت قصة « تاييس » التى كتبها « أناتول فرانس » فى أسلوب ساحر ، وفى تعبير عن الجوانب النفسية أدق ما يكون التعبير ..

انهـا اتجهت الى الله بكل كيانها ، فتقبلها فى رحابه ، وغفر لها ماضيها الآثم ، وماتت قديسة ..

ان الانتفاضات الدينية الروحية التى تنتشل الانسان فجأة من حياة اللهو والاثم كثيرة فى مجرى التاريخ ..

وما انتفاضة ابراهيم بن أدهم الا واحـدة من عشرات أو مئات .. ان الرضا الحقيقى لا يكون ثمرة المـلاذ .. والسـعادة ليست نتيجة اللهو والعبث .. وان كل من منحه الله عنصر الخيرية

فى طبيعته لابد له من انتفاضة تنتشله من جو البعد عن الله الى جو القرب منه ..

هذه الانتفاضة لها مقدماتها وبواعثها ، وأسبابها وعواملها الكثيرة التى تكون انتباهة عابرة ، أو عدم ارتياح الى ما هو فيه ، أو عدم اقتناع بأن حياته تمثل الحياة المثلى ، أو عدم رضا عن آلية حياته ..

ولقد كان ابراهيم بن أدهم — قبل توبته — يتجه الى الله من حين الى حين .. يتجه اليه وهو فى غمرة من ملذاته .. يتجه اليه فى رجاء ويقول :

« اللهم انقلنى من ذل معصيتك الى عز طاعتك » ..

هذه هى انتفاضة ابراهيم بن أدهم ، وهى انتفاضة كل من أحب الله لهم الخير والهداية .. أما الذين نضب معين النور من قلوبهم ، بسبب آثامهم ومعاصيهم .. وأما الذين أطاحت بهم الخطيئة لكثرة ما اجترحوا من السيئات ، فانهم ينتحرون فى غمرة من مقت الله ، أو يستمرون فى شرهم الى أن تنتهى بهم الحياة ..

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام »

« ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم »..

سياحاته :

لقد كان شيخنا ــ رضوان الله عليه ــ كثير السياحة .. لقد كان ينتقل من مكان الى مكان .. كان ينتقل من أجل طلب الرزق الحلال ، وكان ينتقل من أجل طلب العلم ، وكان ينتقل متعبدا ، وكان ينتقل ابتعادا عن الشهرة ــ أى ينتقل من مكان اشتهر فيه الى مكان آخر لا يعرف فيه ..

والسياحة كانت دائما من منهج الصوفية لكل هذه الأغراض التى ذكرناها .. وكلمة السياحة اذا كانت قد مسخت الآن ، وأصبحت لا تكاد تدل الا على العبث والاستهتار ، فانها فى الجو الاسلامى لها معناها الشريف الصادق ..

ان الله سبحانه وتعالى يصف بها المؤمنين الصادقين فيما وصفهم به من كريم الصفات ، فيقول :

« التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين » ..

ويصف بها المؤمنات الصادقات اللائى يمثلن المثل الأعلى لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

(عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن ،

مسلمات مؤمنات قانتــات تائبــات عابدات ســائحات ثيبات وأبكارا) ..

وكانت كلمة السياحة تعنى أحد أمرين :

كانت تعنى الســـــياحة فى طلب العلم : وذلك أن الأمــة الاسلامية ـــ وهى أمة واحدة ـــ قد توزعت الاختصاصــات فى فنون العلم المختلفة بين أرجائهــا .. فأكبر عالم متخصص فى الحديث مثلا كان بالمدينة ، وأكبر عالم فى الفقه كان فى مكة ، وأكبر عالم فى التوحيد كان فى مصر أو فى بغداد .. وهكذا ..

فكان الصوفية يسيحون طلبــا للعلم فى مختلف الأقطار .. ومن الروايات المشهورة ، أن يسافر عالم من دمشق الى القاهرة فى طلب حديث واحد .. وهذه الأســفار فى طلب العلم يطلقون عليها هجرة فى سبيل الله ..

والمهاجرون طلبا للعلم ، من الصوفية ومن غيرهم لا يكاد يحصيهم العد .. وكم ألف هؤلاء المهاجرون من الكتب بجوار الكعبة ، فكانت مؤلفاتهم فتحا ، وكانت فتوحات ..

وكم ألفوا من الكتب بالمدينة المنورة ، فكانت مؤلفــاتهم نورا ، وكانت أنوارا ..

وكانت كلمة السياحة ـــ أيضا ـــ تعنى السفر تعبدا ، وان السفر لمن أهم الوسائل التى تدعو الى التأمل والعظة والتفكر ،

والى الخلوة مع الله فى بيئة لا تعرف الانسان فلا تشغله عن عبادته ..

وكان الصوفية يكثرون من هذا النوع من السياحة ، وكانوا يقومون بها على شواطىء الأنهار ، أو فى الصحراء على مشارف العمران ، وكانوا يقصون الأقاصيص المختلفة التى رأوها أو حدثت لهم أثناء أسفارهم ، والتى يكون فيها العظة والعبرة للآخرين ..

بيد أن أسفار ابراهيم بن أدهم لم تكن من أجل هذه الأهداف التى ذكرناها فحسب ، وانما كانت أيضا من أجل الجهاد فى سبيل الله .. وسنتحدث عن هذا فيما بعد ان شاء الله .

***

لقد ترك ابراهيم بن أدهم حياة النعيم وحياة الترف من أجل العبادة ، ولم تشغله حراسة البساتين أو حصاد الزرع عن الاستغراق فى العبادة .. يقول مخلد بن الحسين :

« ما انتبهت من الليل الا أصبت ابراهيم بن أدهم يذكر الله ، فأغتم ، ثم أتعزى بهذه الآية : (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) » ..

بيد أن الطابع الذى كان يسود عبادته انما هو التفكر ..

يقول يوسف بن سعيد بن مسلم : قلت لعلي بن بكار : « كان ابراهيم بن أدهم كثير الصلاة ؟

قال : لا ، ولكنه صاحب تفكر يجلس ليلة يتفكر » .

. وابراهيم فى هذا يساير الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية قال تعالى :

« ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهـار لآيات لأولى الألباب .. الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » (١) ..

ويقول :

« قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض » (٢) .

ويقول :

« أفلم ينظروا الى السـماء فوقهم كيف بنيناها وزينـاها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد .. والنخل

---

(١) آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١

(٢) يونس : ١٠١

باسقات لها طلع نضيد .. رزقا للعباد وأحيينابه بلدة ميتا كذلك الخروج » (١) .

ويقول تعالى :

« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت » (٢) ؟ ..

ولما نزل قوله تعالى : « ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » الآيات .. ، بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرآه بلال فقال : يا رسول الله تبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ ..

فقال :

يا بلال ، أفلا أكون عبدا شكورا .. ؟ .. وما لى لا أبكى وقد نزل على الليلة : « ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب — الى قوله — سبحانك فقنا عذاب النار » .. ثم قال : ويل لمن قرأ هذه الآيات ولم يتفكر فيها ..

---

(١) ق : ٦ — ١١ .
(٢) الغاشية : ١٧ — ٢٠

ومن الآثار فى ذلك ما روى عن الحسن البصرى قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة ، وعن أبى سليمان الدارانى قال : « انى لأخرج من منزلى فما يقع بصرى على شىء الا رأيت لله على فيه نعمة ، ولى فيه عبرة » ..

وقال سفيان بن عيينة :

« الفكرة نور يدخل قلبك » .

وقال بشر بن الحارث :

« لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه » ..

واذا تحدث الكاتبون عن عبادة ابراهيم بن أدهم ، فانه من الأهمية بمكان أن يتحدث الانسان عن نوع من العبادة عنده ، هو من أنفس أنواع العبادات ، وذلك هو السخاء ، أو اذا شئت : الصدقة .. يقول مضاء بن عيسى :

« ما فاق ابراهيم بن أدهم أصحابه بصوم ولا صلاة ، ولكن بالصدق والسخاء » ..

ويحدث أحمد بن أبى الحوارى فيقول : قلت لمروان — وكان مضاء حدثنى قال : « ما فاق ابراهيم بن أدهم الا بالصدق والسخاء .. قال مروان : كان ابراهيم سخيا جدا » ..

ويقول الأوزاعي :

« ليس في هؤلاء الفقراء أفضل من ابراهيم بن أدهم فانه أسخى القوم » ..

ورغم أن ابراهيم بن أدهم كان يأكل من عمل يده ، فان أجره كان فيه البركة ، وكان العسل والسمن دائما على مائدته ، وكانت مائدته مبذولة لكل وارد من أصحابه . يقول بشر بن المنذر ـــ قاضي المصيصة :

« كنت أرى ابراهيم بن أدهم كأنه أعرابي ، لا يشبع من الخبز والماء ، يابسا ، انما هو جلد على عظم ، لا تراه مجالسا أحدا ، ولا تحدثه حتى يأتي منزله ، فاذا أتى منزله وجلس اليه اخوانه ضاحكهم وباسطهم .. وقال لي بعض أصحابه : ما كان العسل والسمن على مائدته الا شبيها بالحمص المطحون ـــ يعني الباقلا ـــ يريد أنه كان كثيرا مبذولا كأنه الحمص .

ولم يكن كرمه مبذولا في بيته فحسب ، وانما كان مبذولا بحسب الظروف .. يروى أحمد بن الفضل العكي قال : سمعت أبي يقول :

« مر ابراهيم بن أدهم بقيسارية وقد تعجل دينارا من الكرم ، فسمع صوت امرأة تصيح فقال : ما لهذه ؟ .. قالوا تلد .. قال : وأي شيء يعمل بالمرأة .. قالوا : يشتري لها طحين

وزيت ولحم وعسل ، فصرف ديناره ، واشترى زنبيلا ، وملأه طحينا ، واشترى زيتا وسمنا وعسلا ولحما ، وحمله على رقبته الى الباب ، وقال : خذوا .. قال : فنظر فاذا هم أفقر بيت فى أهل قيسارية وأعبدهم ..

ومرة أخرى ، كمثل لما كان عليه من الانفاق ، يتحدث عنها شقيق بن ابراهيم ، ويذكرها كتاب الحلية .. يقول شقيق :

« بينما نحن ذات يوم عند ابراهيم ، اذ مر به رجل من الصناع ، فقال ابراهيم : أليس هذا فلانا ؟ .

قيل : نعم .

فقال لرجل : أدركه فقل له ، قال لك ابراهيم : مالك لم تسلم ؟ ..

قال : لا ، والله .. ان امرأتى وضعت ، وليس عندى شىء ، فخرجت شبه المجنون .. فرجعت الى ابراهيم وقلت له ، فقال :

انا لله .. كيف غفلنا عن صاحبنا حتى نزل به الأمر ؟ ..

قال :

يا فلان ، ائت صاحب البستان فاستسلف منه دينارين ، وادخل السوق فاشتر له ما يصلحه بدينار ، وادفع الدينار الآخر اليه .. فدخلت السوق وأوقرت بدينار من كل شىء ، وتوجهت اليه فدققت الباب .. فقالت امرأته :

من هذا ؟ .. قلت : أنا ، أردت فلانا .. قالت ليس هو هنا.

قلت : فمرى بفتح الباب وتنحى ، قال :

ففتحت البـاب ، فأدخلت ما على البعير ، وألقيته فى صحن الدار ، وناولتها الدينار ..

فقالت : على يدى من هذا ؟ ..

قلت : قولى : على يد أخيك ابراهيم بن أدهم .. فقالت :

اللهم لا تنس هذا اليوم لابراهيم ..

ويأسف ابراهيم بن أدهم على ذهاب السخاء من الأنفس ، يقول ابراهيم بن بشار :

« سمعت ابراهيم بن أدهم يقول : ذهب السـخاء والكرم والجود والمواساة من لم يواس الناس بماله وطعامه وشرابه ، فليواسـهم ببسـط الوجه والخلق الحسن .. اياكم أن تكون أموالكم سببا فى أن تتكبروا على فقرائكم ، أو سببا فى أن لا تميلوا الى ضعفائكم ، وألا تنبسطوا الى مساكينكم » قال :

وسمعت ابراهيم يقول : قال لقمان لابنه :

« ثلاثة لا يعرفون الا فى ثلاثة مواطن : لا يعرف الحليم الا عنـد الغضب ، ولا الشجاع الا فى الحرب اذا لقى الأقران ، ولا أخاك الا عند حاجتك اليه » ..

واذا سألت الآن عن الطعام الذى كان يتناوله هـذا الذى كان السمن والعسل على مائدته كالحمص ، فهاك ما يقوله أحمد ابن أبى الحوارى فى ذلك :

« قلت لسليمان بن ابى سليمان : بلغنى أنهم تذاكروا طيب الطعام عند ابراهيم بن أدهم ، فقـال ابراهيم : ما أحسب أن يكون شيء أطيب من خبز سحق بزيت ، فقال سـليمان : كان معه أداته ـــ يعنى الجوع ـــ .. ومعنى قول سليمان : هو أن ابراهيم بن أدهم كان يستمرىء كل طعام ، لأنه ما كان يأكل الا جائعا ، وما دام جائعا فكل طعام فى فمه لذيذ ..

عبادته عن طريق الدعاء

والدعاء مخ العبادة وذلك لأنه مظهر الافتقار والعبودية الى الله سبحانه وتعالى .

يقول الله تعالى :

« يا أيهـا النـاس أنتم الفقراء الى الله ، والله هـو الغنى الحميد » .

وفقرنا الى الله سبحانه ومعرفتنا أنه رحيم رءوف ودود ، من فوائده أن يوجهنا اليه سبحانه بالدعاء ليصرف الأذى ، وليرفع المقت ، وليشفى من المرض ، وليكشف العذاب ..

ولقد وجهنا الله صراحة وفى غير موطن من القرآن الكريم

الى أن نلجأ اليه بالدعاء ، انه تعالى يأمرنا بذلك أمرا .. يقول تعالى :

« وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ،ان الذين يستكبرون عن عبادتى ، سيدخلون جهنم داخرين » .

ويبين الله سبحانه فى صورة من الرحمة الكريمة أنه قريب من الداعي ، ومن كل عبد له :

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » ..

ويبين سبحانه أنه يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء :

« أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض .. ؟ .. أأله مع الله .. ؟ .. قليلا ما تذكرون » ..

والأحاديث القدسية فيما يتعلق بتوجيه الله الى الدعاء ، منها هذا الحديث الشريف الجميل البالغ الجمال لفظا ومعنى .. والذى رواه أبو ذر جندب بن جنادة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يا عبادي : انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .. يا عبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدونى أهدكم .. يا عبادى : كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم .. يا عبادى : كلكم عار الا من كسوته

فاستكسونى أكسكم .. يا عبادى : انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم .. يا عبادى : انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .. يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ..

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئا ..

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى الا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر ..

يا عبادى : انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » ..

وحث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الدعاء كثيرا فقال :

« ان الله عز وجل يقول :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه اذا دعانى (١) » .

(١) البخارى ومسلم واللفظ له والترمذى والنسائى وابن ماجه

وقال :

« الدعاء هو العبادة : ثم قرأ :

« وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين (١) » .

وقال :

« الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السماوات والأرض (٢) » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجأ الى الله فى كل آونة بالدعاء .. ومجموعة أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل الأسلوب الجميل والعبودية السامية ، والتوحيد الخالص.

ولقد أبان صلى الله عليه وسلم أن قضاء الله الماضى يلطفه الدعاء ، ويرده الدعاء ، وان الدعاء والقضاء يلتقيان فيتصارعان ويتدافعان الى يوم القيامة .. يقول صلى الله عليه وسلم :

« لا يغنى حذر من قدر .. والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل .. وان البلاء لينزل فيلقاه الدعاء ، فيعتلجان الى يوم القيامة (٣) » .

---

(١) أبو داود والترمذى واللفظ له وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد

(٢) الحاكم وأبو يعلى .

(٣) رواه البزار والطبرانى والحاكم وقال : صحيح الاسناد ..

وليس فى ذلك معارضة للقضاء والتقدير .. لأن الدعاء من القضاء ومن التقدير .. وقد جعله الله سببا لتخفيف البلاء ، وزوال النقم .

واتباعا لهدى القرآن ، وتأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، واظهارا للعبودية الخالصة لله سبحانه ، والتجاء الى الله لكشف السوء صغيرا كان أو كبيرا .. التجأ الصالحون دائما الى الله بالدعاء ..

وعلى هذا النسق سار شيخ الصوفية : ابراهيم بن أدهم .

لقد كان لابراهيم بن أدهم ورد يومى ، يرويه عنه ابراهيم ابن بشار :

كان ابراهيم بن أدهم — حسبما يروى ابن بشار — يقول هذا الكلام فى كل جمعة اذا أصبح عشر مرات ، واذا أمسى يقول مثل ذلك :

« مرحبا بيوم المزيد ، والصبح الجديد ، والكاتب الشهيد .. يومنا هذا يوم عيد ، اكتب لنا فيه ما نقول :

« باسم الله الحميد المجيد ، الرفيع الودود ، الفعال فى خلقه ما يريد .. أصبحت بالله مؤمنا ، وبلقاء الله مصدقا ، وبحجته معترفا ، ومن ذنبى مستغفرا ، ولربوبية الله خاضعا ، ولسوى الله جاحدا ، والى الله تعالى فقيرا ، وعلى الله متوكلا ، والى الله منيبا .. أشهد الله ، وأشهد ملائكته ، وأنبياءه ، ورسله ، وحملة

عرشه ، ومن خلق ، ومن هو خالق ، بأن الله لا اله الا هو وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .. وأن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، ومنكرا ونكيرا حق ، ولقاءك حق ، ووعدك حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من فى القبور .. على ذلك أحيا وعليه أموت ، وعليه أبعث ان شاء الله ..

اللهم أنت ربى لا رب لى الا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت .. أعوذ بك اللهم من شر كل ذي شر ، اللهم انى ظلمت نفسى فاغفر لى ذنوبى ، انه لايغفر الذنوب الا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق ، فانه لا يهدى لأحسنها الا أنت ، واصرف عنى سيئها فانه لا يصرف سيئها الا أنت .. لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك وأنا لك .. أستغفرك وأتوب اليك .. آمنت اللهم بما أرسلت من رسول ، وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب .. صلى الله على محمد وعلى آله وسلم كثيرا خاتم كلامى ومفتاحه .. وعلى أنبيائه ورسله أجمعين .. آمين ، يا رب العالمين ..

اللهم أوردنا حوضه ، واسقنا بكأسه ، مشربا مريا ، سائغا هنيا ، لا نظمأ بعده أبدا ، واحشرنا فى زمرته ، غير خزايى ، ولا ناكسين ، ولا مرتابين ، ولا مقبوحين ، ولا مغضوبا علينا ، ولا ضالين ..

اللهم اعصمني من فتن الدنيا ، ووفقني لما تحب من العمل وترضى ، وأصلح لى شأنى كله ، وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولا تضلنى وان كنت ظالما .. سبحانك سبحانك .. يا على يا عظيم ، يا بارىء يا رحيم ، يا عزيز يا جبار ، سبحان من سبحت له السماوات بأكنافها ، وسبحان من سبحت له الجبال بأصواتها ، وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها ، وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها ، وسبحان من سبحت له النجوم فى السماء بأبراقها ، وسبحان من سبحت له الأشجار بأصولها ونضارتها ، وسبحان من سبحت له السماوات السبع والأرضون السبع ، ومن فيهن ، ومن عليهن ، سبحانك سبحانك يا حى يا حليم ، سبحانك لا اله الا أنت وحدك » .

على أن ابراهيم بن أدهم ، ما كان يكتفي بهذا الدعاء .. وانما كانت له كلمات جميلة هى على لسانه فى كل لحظة .. منها مثلا ، ما يخبر به عبد الله الملطى وغيره :

« كان عامة دعاء ابراهيم :

اللهم انقلنى من ذل معصيتك الى عز طاعتك » .

وكان لابراهيم بن أدهم دعاء فى الشدائد معروف :

لقد كان يتجه الى الله بكيانه كله ، قائلا :

« ياحى حين لاحى ، وياحى قبل كل شىء ، وياحى بعد

كل شيء .. يا حي ، يا قيـوم ، يا محسن ، يا مجمل ... قـد أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك » .

وكان له دعاء للحفظ مجرب .. لقد جربه مثـلا ابراهيم بن بشار وقال :

« انى لأقوله على ثيـابى ونفقتى ، فمـا فقـدت منهـا شيئا » ..

ولقد كان ابراهيم بن أدهم يعلمه لأصحابه ، كان يقـول لهم اذا اجتمعوا :

« ما على أحدكم اذا أصبح واذا أمسى أن يقول :

« اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام ، واحفظنا بركنك الذى لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، ولا نهلك وأنت الرجاء »

ويقول خلف ـ كما يروى كتاب الحلية ـ : « فأنا أسافر منذ نيف وخمسين سنة ، فأقولها : لم يأتنى لص قط ، ولم أر الا خيرا » ..

ولقد سئل ابراهيم بن أدهم عن السبب فى أن بعض الناس يدعو فلا يستجاب له .. ويروى شـفيق البلخى فى ذلك أن ابراهيم بن أدهم مر يوما فى أسواق البصرة ، فاجتمع النـاس اليه ، فقالوا : « يا أبا اسحاق : ان الله تعالى يقول فى كتـابه:

« ادعــونى أســتجب لكم » ونحن ندعوه منذ دهر ، فلا يستجيب لنا ؟ . فقال ابراهيم :

يا أهل البصرة ، ماتت قلوبكم فى عشرة أشياء :

أولها : عرفتم الله ، ولم تؤدوا حقه ..

الثانى : قرأتم كتاب الله ، ولم تعملوا به ..

الثالث : ادعيتم حب رســول الله صلى الله عليــه وسلم ، وتركتم سنته ..

الرابع : ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه ..

الخامس : قلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ..

السادس : قلتم نخاف النار ، ورهنتم أنفسكم بها ..

السابع : قلتم ان الموت حق ولم تستعدوا له ..

الثامن : اشــتغلتم بعيوب اخــوانكم ونبذتم عيوبكم ..

التاسع : أكلتم نعمة ربكم ، ولم تشكروها ..

العاشر : دفنتم موتاكم ، ولم تعتبروا بهم ..

وقال ابراهيم بن أدهم ، يوما ، لرجل :

« تريد أن تدعو ؟ .. كل الحلال وادع بما شئت » . .

وابراهيم بن أدهم فى هذا يتابع الحديث الشريف ــ فيمــا روى عن ابن عباس قال :

«تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم : « ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » .. فقــام سعد بن أبى وقاص ، فقال :

يا رسول الله ؟.. ادع الله أن يجعلنى مســتجاب الدعوة .. فقــال :

يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده !.. ان الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه، مايتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت فالنـــار أولى به » ..

وبعــد :

فقد كان لابراهيم بن أدهم مناجاة :

« اللهم انى لم آت الذنوب جراءة عليك ولا اســتخفافا بحقك ، ولكن جرى بذلك قلمك ، ونفذ به حكمك ، والمعــذرة اليــك .

لقد كان ابراهيم بن أدهم متعبدا ، يغلب عليه طابع التفكير فى خلق السماوات والأرض ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان سخيا .. وكل هذا تحدثنا عنه ـــ بيد أننا اذا اقتصرنا على ذلك، فان الصورة التى نقدمها عن ابراهيم بن أدهم تكون ناقصة ..

ومن أجل اتمام هذه الصورة ، فاننا نعود الى أسفاره التى ذرع فيها أرض الله ذهابا وجيئة ، متفكرا ، متأملا ، متعظا واعظا ..

ان الكثير من هذه الأسفار كان متجردا للجهاد فى سبيل الله لقد جاهد ابراهيم بن أدهم فى البر ، وجاهد فى البحر .. يروى صاحب الحلية عن أحمد بن بكار قال :

« غزا معنا ابراهيم بن أدهم غزاتين ، كل واحدة أشد من الأخرى .. غزاة عباس الأنطاكى ، وغزاة محكاف .. فلم يأخذ سهما ولا نفـلا (١) ، وكان لا يأكل من متـاع الروم ، تجىء بالطرائف والعسل والدجاج ، فلا يأكل منه ويقول : هو حلال ولكنى أزهد فيه .. كان يأكل مما حمل معه ، وكان يصوم .. قال : وغزا على برذون (٢) ثمنه دينار .. وكان له حمار فعارض به ذلك البرذون .. وكان لو أعطيته فرسا من ذهب أو من فضة ما كان قبله ، ولا يقبل شربة من ماء .. وغزا فى البحر غزاتين لم يأخذ سهمه ، ولا يفترض .. قال على : هذا الغازى .. قال على: ومات ابراهيم فى صائفة السفر بالبطن » ..

وعن أشعث بن شعبة قال :

« غزونا غزوة ومعنا ابراهيم بن أدهم ، فأصابتنا مخمصة فى أنفسنا ، وفى دوابنا ، فسمع أهل المصيصة بذلك ، فبعثـوا

---

(١) أى : غنيمة .
(٢) أى : دابة .

بالبغال عليها الزاد الى الدرب ، فسمعت ابراهيم يقول : أى متكلف أخبر الناس بهذا ؟.. قال أشعث :

كأنه يشتهى أن تكون على حالنا حتى ندخل ، فلما دخل مضى كما هو فلم ينزل المصيصة ، فقال لى أبو اسحاق الفزارى : اطلب ابراهيم .. فطلبته ، فاذا هو قد مر .. فقال لى : الحقه ، وأعطانى نفقة .. فلحقته بأنطاكية ، فقال لى حين رآنى : قد جئت ؟ .. قلت : نعم ، أبو اسحاق بعثنى ، فأعطيته النفقة ، فقبلها ، فلما أردت الرجوع أعطانى ازارا وقال لى : اذهب بهذا الى أبى اسحاق .. قلت :

ما منعك أن تنزل بالمصيصة ؟ .. فقال : على من أنزل ؟.. فذكر أهل المصيصة ، حتى ذكر شريكا فقال : لو قسمت خمسة دراهم فى السبيل ، جاء شريك ينافس فيها » ..

وتدل هذه القصص على الطابع النفسى والأخلاقى لابراهيم فى غزوه .. انه ما كان يغزو من أجل المغنم ، انما كان يجرد همته كلية لله تعالى ، لايبغى من وراء ذلك حطام الدنيا ، ولايبغى جزاء ولا شكورا من أحد .. انه ما كان يبغى الجزاء الا من الله سبحانه ،

قرأ ابراهيم القرآن الكريم ، وتمعن فيه .. ودرس الحديث الشريف فى استفاضة ورأى ما للجهاد من فضل ، فأحب أن يشرف على الجنة من تحت ظلال السيوف كما يقول رسول

الله صلى الله عليه وسلم « الجنة تحت ظلال السيوف » .. وأحب أن يتاجر مع الله :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، وتؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين » (١) .

وأحب أن يدخل فى دائرة هؤلاء الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة :

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم (٢)»

لقد قرأ ابراهيم بن أدهم فيما قرأ قوله تعالى :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (٣) »

---

(١) الصف : ١٠ ـ ١٣

(٢) التوبة ١١١

(٣) البقرة ١٩٠

وقـــوله :

« وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم » (١)

وقوله :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقــوا بهم من خلفهم ألا خــوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢)

وقوله :

« ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » (٣) .

وعرف فيما عرف من الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم:

تضمن الله لمن خرج فى سبيله ، لايخرجه الا جهاد فى سبيلى، وايمان بى ، وتصديق برسلى ، فهو ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه الى منزله الذى خرج منه نائلا ما نال من أجــر أو غنيمة .. والذى نفس محمد بيده ، ما كلم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم : لونه لون دم ، وريحــه

---

(١) البقرة : ٢٤٤
(٢) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠
(٣) البقرة : ١٥٤

ريح مسك .. والذى نفس محمد بيده ، لولا أن أشق على المسلمين ، ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى .. والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » (١)

وما رواه أبو هريرة : ــ رضى الله عنه ــ قال :

ــ مر رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته ، فقال :

لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« لاتفعل ، فان مقام أحدكم فى سبيل الله تعالى أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟.. اغزوا فى سبيل الله ، .. من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » (٢)

وقوله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه مالك والبخارى ومسلم واللفظ له .. والنسائى ــ والكلم : الجرح
(٢) رواه الترمذى وحسنه الحاكم وصححه ..

« ان فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » (١)

وأدرك هذه الموازنة الصارخة بين الجهاد والعبادة فيما روى من الأحاديث التالية :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قيل : يا رسول الله، ما يعدل الجهاد فى سبيل الله ؟ ..

قال : « لا تستطيعونه » — فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا ، كل ذلك يقول :

« لا تستطيعونه » .. ثم قال :

« مثل المجاهد فى سبيل الله ، كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله » (٢) .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى العمل أفضل ؟ — قال : « ايمان بالله ورسوله » قيل : ثم ماذا ؟ .. قال : « الجهاد فى سبيل الله » .. قيل : ثم ماذا ؟.. قال : حج مبرور » (٣)

(١) رواه البخارى ..
(٢) البخارى ومسلم واللفظ له ..
(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى ..

ويوضح ذلك قوله تعالى :

« ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسـول الله ، ولا يرغبـوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين .. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » (١)

واذا أفضى الجهاد الى الاستشهاد ، فان مصير الشـهيد السعادة الدائمة والنعيم المقيم .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

« لما أصيب اخوانكم جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتأوى الى قناديل من ذهب، معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ اخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة نرزق ، لئـلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ؟.. فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم .. قال : فأنزل الله عز وجل :

---

(١) التوبة : ١٢٠ ، ١٢١

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا » الى آخر الآية » (١) .

وعن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له فى أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ـ الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ـ ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين ، ويشفع فى سبعين من أقاربه » (٢) .

ومحال أن تكون هذه الصورة الاسلامية عن الجهاد واضحة فى ذهن مسلم ، الا ويلقى بنفسه فى معمعان الحرب مجاهدا فى سبيل الله ..

وقد ألقى ابراهيم بنفسه فى الجهاد متجردا عن كل ماسوى مرضاة الله سبحانه .. ومما رواه من الأحاديث فى ذلك :

ما رواه عن هشام بن حسان ، عن يزيد الرقاشى ، عن بعض عمات النبى صلى الله عليه وسلم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) آل عمران : ١٦٩

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح غريب

« شهيد البر يغفر له كل ذنب الا الدين والأمانة ، وشهيد البحر يغفر له كل ذنب والدين والأمانة » (١) ..

وما رواه عن حماد بن أبى سليمان قال : «الطعن فى الجهاد نزغ من الشيطان »

وروى عن يونس بن عبيد قال : « ماندمت على شيء ندامتى أن لا أكون أفنيت عمرى فى الجهاد » . .

وهذه الصورة لشيخ الصوفية الذى ترك الترف والنعيم ولذة الدنيـا ونعيمها ، وآثر بحبوحة الجنـة .. هذه الصورة نقدمها الى هؤلاء الذين يحبون دائما أن يزيفوا الصـورة عن التصوف والصوفية .. فيصفونهم بأنهم سلبيون ، اننا نحب أن نرى جهاد الذين ينتقدون التصوف ، ونحب أن نرى آثارهم فى ساحة الشرف والبطولة ، ساحة الجهـاد فى سبيل الله » ..

ابراهيم بن أدهم : هل هـو :

أعرض عن متاع الدنيا وطيباتهـا فى سـبيل الله ؟ .. نعم .

متعبد ؟ .. نعم .

يأكل من عمل يده ؟ .. نعم .

(١) الحليه جـ ٧ ص ٥١

سخى متصدق ؟ .. نعم .

مجاهد لا يبــالى على أى جنب كان فى الله مصرعه ؟ .. نعم .

هل كملت صورة ابراهيم بن أدهم ؟ .. كلا

ما الذى ينقصها ؟..

ينقصها الحديث عن ابراهيم بن أدهم العالم . .

الفصل الثانى

المحدث

المحدث

الام بلغ ابراهيم بن أدهم من العلم قبل توبته ؟.. كيف تثقف فى طفولته وشبابه ؟ ذلك مالا ندريه ..

ولكن الذى نعرفه : هو أن ابراهيم بن أدهم درس الحديث الشريف الى الحد الذى جعل مؤرخى الحديث يذكرونه فى كتبهم مقدرين له ، وذاكرين من روى عنهم ، ومن أخذوا عنه ..

ولقد روى عن جماعة من التابعين وتابعى التابعين ، وممن روى عنهم : أبو اسحاق : عمرو بن عبد الله السبيعى ، الذى رأى عليا بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وسمع من البراء بن عازب رضى الله عنه ..

ومن روى عنهم : يحيى بن سعيد الأنصارى ، وسعيد بن المرزبان ، ومقاتل بن حيان النبطى ، ويزيد الرقاشى ، ومالك بن دينار .. وروى عن الثورى ، وروى الثورى عنه ..

أما من روى عنه : فمنهم : خادمه ابراهيم بن بشار ، وبقية ابن الوليد ، وشقيق البلخى ، وأبو اسحاق الفرارى ..

وفيما يتصل بتقديره والثقة به ، فقد قال صاحب التقريب عنـه :

صدوق : خرج له البخارى فى الأدب ، والترمذى ..
وقال النسائى :

ثقة ، مأمون ، أحـد الزهاد ..

وقال الدارقطنى :

اذا روى عنه ثقة ، فهو صحيح الحديث

وقال ابن معين :

عابد ثقـة

وقال ابن نميرو العجلى :

ثقـــة

وذكره ابن حبان فى الثقات (١)

وما كان لابراهيم بن أدهم ـــ وهو يحب أن يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ الا أن يدرس الحديث ، وقد سـار

(١) انظر : تهذيب التهذيب ، والحلية ، والكواكب الدرية

فى هذا على نسق المعاصرين له من الصوفية ، الذين قرءوا قول الله تعـالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » ..

والدرجة التى بلغها ابراهيم بن أدهم من العلم درجة نفيسة .. انها درجة تضعه فى مرتبة المحدثين الثقاب ، بيد أنه يجب أن لا يعزب عن آذهاننا أن ابراهيم بن أدهم عابد زاهد ، يطلب العلم من أجل العمل ، ويرغب فى العلم من أجل تطبيقه .. يقول صاحب الحليه :

« لم تكن الرواية من شأنه ، فلذلك يقل حديثه »

فى الايمـان :

لقـد سار شيخ الصوفية ــ فى سلوكه وفى فكره ــ على أن الايمان تصديق وقول وعمل . انه تصديق بالجنـان ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح ..

ويروى شيخنا فى ذلك ، عن عبد الله بن شوذب ، عن ثابت البنانى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنهم أجمعين ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الله تعالى يعذب الموحدين بقدر نقصان ايمـانهم ، ثم يردهم الى الجنة خلودا دائما » ..

والحديث صريح فى أن الايمان ليس تصديقا فحسب ..

وما من شك فى أن أساس الايمان الذى لايقـوم الايمان بدونه ، انما هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليـوم الآخر ، وبالقضاء خيره وشره .. وهذا لا يمارى فيه أحد .. ثم يأتى بعد ذلك البناء .. وقد يرتفع هذا البناء سامقا فى جـو السماء ، مشرقا كضياء النجوم .. وقد لايرتفع البناء عن الأرض الا قليلا ، ويكون باهتا خافتا ..

ولقد أعلن القرآن صراحة أن الايمان ليس تصديقا فحسب، وممن أوضح هذا المبدأ الاسلامى الصادق ، الامام البخـارى ـ رضى الله عنه ـ .. انه يقول فى أول كتاب الايمان :

« باب الايمان وقول النبى صـلى الله عليه وسـلم : بنى الاسلام على خمس .. وهو قول وفعل ويزيد وينقص .. قال الله تعالى : « ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » .. ، .. « وزدناهم هدى .. ، .. « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » .. ، .. «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » .. « ويزداد الذين آمنوا ايمانا » .. وقوله : « أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا » . وقـوله جل ذكره : « فاخشـوهم فزادهم ايمانا » .. وقوله تعالى : « وما زادهم الا ايمانا وتسليما » .. والحب فى الله والبغض فى الله من الايمان ..

وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن عدى :

ان للايمان فرائض وشرائع، وحدودا وسننا، فمن استكملها استكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ، فان أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وان أمت فما أنا على صحبتكم بحريص » ..

وكتاب الايمان من صحيح البخارى ، ينحو كله نحو هذه الفكرة ، وعشرات الأحاديث فيه تؤيدها ..

ولقد سبق أن كتبنا فى هذا الموضوع ، فى كتابنا « الاسلام والايمان » فى شيء من الاستفاضة ، ومما كتبناه :

واذا كان هذا رأى البخارى — رضى الله عنه — ، فان أبالحسن على بن خلف يقول فى شرح صحيح البخارى :

« مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها ، أن الايمان قول وعمل ، ويزيد وينقص » .

ويقول عبد الرزاق : حسبما يذكر الامام النووى فى شرح مسلم :

« سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا : سفيان الثورى ، ومالك بن أنس ، وعبيد الله بن عمر ، والأوزاعى ، ومعمر بن راشد ، وابر جريج ، وسفيان بن عيينة ، يقولون :

« الايمان قول وعمل ، ويزيد وينقص » ..

وهذا قول ابن مسعود ، وحذيفة ، والنخعي ، والحسن البصري ، وعطاء ، وطاوس ، ومجاهد ، وعبد الله بن المبارك ..

ويتابع عبد الرزاق الحديث ، فيقول :

فالمعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين، هو اتيانه بهذه الأمور الثلاثة : التصديق بالقلب ، والاقرار باللسان ، والعمل بالجوارح . وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه ، لا يستحق اسم مؤمن .. ولو عرف وعمل وجحد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد ، لا يستحق اسم مؤمن .. وكذلك اذا أقر بالله تعالى، وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمنا بالاطلاق ، وان كان في كلام العرب يسمى مؤمنا بالتصديق ، فذلك غير مستحق في كلام الله تعالى، لقوله عز وجل :

« انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، وعلى ربهم يتوكلون .. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .. أولئك هم المؤمنون حقا » ..

فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته ..

وما ذكره عبد الرزاق يؤيده ابن بطال فى باب من قال :

« الايمان هو العمل » من شرح صحيح البخارى « فيقول :

فان قيل : قد قلتم ان الايمان هو التصديق ..

قيل : التصديق هو أول منازل الايمان ، ويوجب للمصدق الدخول فيه ، ولا يوجب له استكمال منازله ، ولا يسمى مؤمنا مطلقا ..

هذا مذهب جماعة أهل السنة : أن الايمان قول وعمل ..

قال أبو عبيد : وهو قول مالك والثورى والأوزاعى ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهدى وأئمة الدين ، من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم ..

قال ابن بطال : وهذا المعنى أراد البخارى رحمه الله اثباته فى كتاب الايمان ، وعليه بوب أبوابه كلها فقال :

باب أمور الايمان .

وباب الصلاة من الايمان .

وباب الزكاة من الايمان .

وباب الجهاد من الايمان .

وسائر أبوابه ..

وانمـا أراد الرد على المرجئة فى قولهم : ان الايمـان قول بلا عمل ، وتبيين غلطهم ، وسوء اعتقادهم ، ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة ..

وينهج الامام الطبرى هذا النهج أيضا ، فيقول :

« الايمان : كلمة جامعة : الاقرار بالله وكتبه ورسـله ، وتصديق الاقرار بالفعل » .

ولقد سار شيخنا على نهج أسلافه من أئمة الهدى .. وماكان اجتهاده فى العبـادة ، وفى الجهاد ، الا بعض أعـلام ايمـانه العميق ..

ومن مروياته فى الايمـان :

روى عن محمد بن عجلان ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن يسير المؤونة »

وروى عن أبى عبد الله الخراسـانى قال : قال عمـر بن الخطاب :

« من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خـاف الله لم يفعـل ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون » ..

وروى عن عمران بن مسلم القصير قال :

« ان الحكمة لتكون فى قلب المنافق تتلجلج ، فلا يصبر عليها حتى يلقيها ، فيتلقاها المؤمن فينفعه الله بها » ..

وروى عن بحر السقا البصرى قال : حدثنى بعض الفقهاء قال :

« الحياء خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعلم دليله ، والعمل فقهه ، والصبر أمير جنوده ، والرفق والده ، والبر أخوه » ..

وروى عن أبى حازم المدينى قال :

« من أعظم خصلة المؤمن أن يكون أشد الناس خوفا (١) على نفسه ، وأرجاه لكل مسلم » .

وروى عن محمد بن عجلان قال :

« المؤمن يحب المؤمن حيث كان » ..

فى السيرة :

روى ابراهيم بن أدهم ، عن أيوب ، عن حميد بن هلال ، عن أبى بردة قال :

---

(١) أى خوفا على نفسه من مقت الله ، أو من سوء الخاتمة ، فهو فى تقوى دائمة لعل الله يتقبل .

« أخرجت الينا عائشــة كســاء ملبــدا ، وازارا غليظا »
وقالت :

« فى هذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم » ..

فى الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم :

وروى عن محمد بن عجــلان ، عن على بن الحسين ، عن أبيه ، عن على بن أبى طالب ، قال : قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم :

« من صلى على يوم الجمعة مائة مرة ، جاء يوم القيــامة ومعه نور ، لو قسم ذلك النور بين الخلق كلهم لوسعهم »

قيمــة الأعمــال :

روى ابراهيم ، وابن جريج ، عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن محمد بن ابراهيم التيمى ، عن علقمة بن وقاص ، عن عمر بن الخطاب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« انما الأعمال بالنيات وانمــا لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر اليــه » ..

يقول صاحب الحلية : هذا من صحاح الأحاديث وعيونها، رواه عن يحيى بن سعيد الجم الغفير .

الخير :

روى ابراهيم ، عن أعين قال : سمعت سـعيد بن المسيب يقـــول :

« من هم بصلاة أو صيام أو عمرة أو حج أو شيء من الخير ثم لم يفعل ، كان له ما نوى » .

وروى ابراهيم — بسنده — عن سعيد بن المسيب قال :

« من هم بصيام أو صدقة أو حج أو عمرة أو شيء من الخير فحال دونه حائل كتب الله أجره » ..

في الوضوء :

روى ابراهيم ، عن مقاتل بن حيان ، عن شهر بن حوشب ، عن جرير بن عبد الله قال :

« رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على الخفين » ..

وروى عن مقاتل بن حيان ، عن شهر بن حوشب ، عن جرير ابن عبد الله البجلي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على الخفين » .. فقيل لجرير : بعد نزول المائدة ؟ .. قال :

« انما كان اسلامي بعد نزول المائدة » ..

قال ابراهيم :

« وكان هذا الحديث يعجبهم » ..

في الصلاة :

روى ابراهيم ، عن مقاتل بن حيان ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الصلاة فى المسجد الحرام مائة ألف صلاة ، والصلاة فى مسجدى عشرة آلاف صلاة ، والصلاة فى مسجد الرباطات ألف صلاة » ..

وحدث ابراهيم ، عن الأوزاعى .. قال المفضل : فلقيت الأوزاعى فحدثنى عن قتادة كتب اليه يذكر عن أنس قال :

« صليت خلف النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، فكانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين » ..

وحدث ابراهيم ، عن أبيه أدهم بن منصور العجلى ، عن سعيد بن جبير ، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يسجد على كور العمامة » ..

وروى ابراهيم ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الامام أن يحول الله رأسه رأس حمار ؟ » ..

في حسن الخلق :

روى ابراهيم ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة ، قال :

« جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

يا رسول الله ! .. ما تفسير حسن الخلق ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ثم قال :

يا رسول الله ، ما تفسير حسن الخلق ؟ .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« انما تفسير حسن الخلق ، ما أصاب من الدنيا يرضى ، وان لم يصبه لم يسخط » .

من هدى النبوة :

روى ابراهيم ، عن عباد بن كثير بن قيس قال :

« جاء رجل عليه بردة له ، فقعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ثم جاء رجل عليه أطمار له ، فقعد .. فقام الغنى بثيابه ، فضمها اليه .. فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

أكلّ هذا تقذرا من أخيك المسلم ؟ .. أكنت تحسب أن يصيبه من غناك شىء ، أو يصيبك من فقره شىء ؟ .. فقال الغنى:

معذرة الى الله والى رسوله، من نفس أمارة بالسوء ، وشيطان

يكيدني .. أشهدك يا رسول الله أن نصف مالي له .. فقال الرجل: ما أريد ذاك ؟ .. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لم ذاك ؟. قال : أخاف أن يفسد قلبي كما أفسده » ..

الكرم والعلم :

روى ابراهيم بن أدهم ـــ بسنده ـــ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد الا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فصرفه في سبيل الخير ، ورجل آتاه الله علما فعلمه وعمل به » ..

التواضع :

قال ابراهيم بن أدهم : سمعت محمد بن عجـلان يذكر عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى لله عليه وسلم :

« من تواضع لله رفعه الله » ..

وروى ابراهيم ، عن ابراهيم الصائغ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من ترك زينة الدنيا ، ووضع ثيابا حسـنة تواضعا لله عز وجل وابتغاء وجهه ، كان حقا على الله أن يكسـوه من عبقري الجنة في تخات الياقوت » ..

في الخير :

روى ابراهيم بن أدهم ، عن محمد بن عجلان ، عن سهل ابن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ، خيره الله تعالى من الحور العين يوم القيامة ، ومن ترك ثوب جمال وهو قادر عليه ألبسه الله تعالى أو كساه رداء الايمان يوم القيامة ، ومن أنكح عبد الله ، وضع الله على رأسه تاج الملك يوم القيامة » ..

كظم الغيظ :

عن ابراهيم بن أدهم ، عن أنس رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ، خيره الله تعالى من الحور العين يوم القيامة .. الحديث ..

وقال ابراهيم بن أدهم : كان قتادة يقول :

« أفضل الناس ، أعظمهم عن الناس عفوا ، وأوسعهم له صدرا » .

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

عن ابراهيم بن أدهم ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« غشيتكم السكرتان : سكرة حب العيش ، وحب الجهل: فعند ذلك لا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر .. والقائمون بالكتاب وبالسنة كالسابقين الأولين من المهاجرين والانصار » ..

فى العلم والعلماء

فى العلم :

روى ابراهيم عن شعبة بن الحجاج قال : أنبأنا أبو اسحاق الهمدانى ، عن سعيد بن وهب ، عن عبد الله بن مسعود قال :

« لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من علمائهم وكبرائهم وذوى أسنانهم ، فاذا أتاهم العلم عن صغارهم وسفهائهم فقد هلكوا » ..

العالم والفتنة :

قال ابراهيم : حدثنى أبو اسحاق الهمدانى ، عن عمارة الأنصارى ، عن أبى هريرة رضى لله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان الفتنة تجىء فتنسف العباد نسفا ، وينجو العالم منها بعلمه » ..

وروى ابراهيم قال : حدثنا مالك بن دينار ، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« رأيت ليلة أسرى بى ، رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار .. فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ .. قال :

هؤلاء خطباء أمتك ، يأمرون بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟ » ..

فى الدعاء :

روى ابراهيم : عن مقاتل بن حيان ، عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان كثيرا ما يقول :

« اللهم ثبت قلبى على دينك » ..

من الآداب مع النساء :

عن ابراهيم بن أدهم ، عن الزبيدى ، عن عطاء الخراسانى يرفع الحديث قال :

« ليس للنساء سلام ، ولا عليهن سلام » ..

قال الزبيدى : أخذ على النساء ما أخذ على الحيات أن ينجحرن فى بيوتهن ..

من هم أهل الكتاب ؟ ..

روى ابراهيم بن أدهم ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال :

« نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذبيحة نصارى العرب » .

في الجنة :

قال ابراهيم : روى الربيع بن صبيح ، عن الحسن ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اذا استقر أهل الجنة في الجنة ، اشتاق الاخوان الى الاخوان ، فيسير سريرذا الى سريرذا ، فيلتقيان فيتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا ، ويقول : يا أخي : تذكر يوم كذا .. كنا في دار الدنيا في مجلس كذا فدعونا الله ، فغفر لنا » ..

وقال ابراهيم : حدثني أبو ثابت قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« حسبي رجائي من خالقي ، وحسبي ديني من دنياي » ..

الفصل الثالث

الأخلاق

الأخلاق فى عرف شيخ الصوفية

ان الله سبحانه وتعالى ، وضع قوانين لسعادة الفرد ، ووضع نظما لسعادة المجتمع ، وبين ذلك على السنة رسله ..

ورسل الله مبشرون ومنذرون : انهم يبشرون من اتبع هدى الله بالسعادة ، ويشرحون هدى الله فى مختلف جوانبه ، وينذرون من انحرف عن هديه بالشقاء ..

وما دام الانسان مؤمنا بالله ورسوله ، فانه لا محالة موقن بصدق المبادىء التى رسمها الله لسعادة الفرد ولسعادة المجتمع، وأنها قوانين صادقة هى أصدق من القوانين الطبيعية فى عـالم الكون المادى ..

ولو اعتصم الانسان بالله ، واتبع فى نفسه ما رسمه الله له كفرد .. لسعد فى حياته الدنيا وفى الآخرة ..

ولو اعتصم المجتمع بالله ، واكتفى بالله هاديا ونصـيرا ، لسعد المجتمع وتحقق له الأمن والطمأنينة ..

ولكن بشرية الانسان تتحكم فيه ، وتسيطر عليه ، وتخرجه بذلك من جو الالهية المعصوم ، لتحبسه فى اطار بشريته ، فيرسم لنفسه بنفسه الطريق الذى يسير عليه فردا ، والطريق الذى يسير عليه مجتمعا ..

ان الانسان بغرائزه متأله .. ومن أجل ذلك انصرف — دون شعور واضح منه — أو مع الشعور الواضح — عن التشريع الالهى الى تشريع يشرعه هو ..

ومن هنا كانت هذه المذاهب المتعددة فى الأخلاق .. وهل الأخلاق الا رسم السلوك الفردى فى الحياة ، ورسم السلوك للمجتمع فى مسيرته عبر الزمن ..

لقد بدأ سقراط يبشر بالسعادة ، تتمثل — فيما رأى — فى القناعة ، وأن لا يرغب الانسان الا فيما هو فى متناول يده .. أى : أن يحدد كل انسان رغباته بحسب امكانياته .. وبدأت أوامره للفرد : لا تشته الا ما تستطيع الحصول عليه ، لا تطمح الا فيما تستطيع تحقيقه ، لا تتطلع الا الى السهل الميسور وأخذ سقراط يتدرج مع فكرته التى قادته الى نصح الانسان بأن يقلل مطالبه ما استطاع الى ذلك سبيلا .. ويقول سقراط :

« ان الكمال لله وحده ، والكمال هو أن لا تحتاج الى شيء ، فكلما قلت المطالب والحاجات كلما كان ذلك قربا من

الكمال .. وبالتالى قربا من الله سبحانه .. وكلما كثرت الحاجات والمطالب ، كان ذلك بعدا عن الكمال ، وبالتـالى بعدا عن الله سبحانه » .

وعاش سقراط يحـاول تحويل فكرته النظرية الى واقع ، فكان يسير حافيا لأن الحذاء — حسبما رأى — لا حاجة له .. وكان يأكل الغليظ من الطعـام ، ويلبس الغليظ من الثيـاب ، ويسير كما يقول على مبدا القناعة ..

ومنـذ أن ظهرت فكرته الى المجتمع ، عارضـه الآخرون ، وأعلنوا أن العبد الرقيق ، لو عاش كما يعيش سقراط لهرب من سيده فى جنح من الليل ..

وافلاطون نفسه — تلميذ سقراط الأمين ، وضع مذهبـا يغاير مذهب أستاذه :

النعيم ، الملذات ، الترف ؟ .. من الذى يعارض ذلك ؟ .. من الذى يعارض فى طيبات الحياة الدنيا ونعيمها ؟ .. من الذى يعرض عن متاع الدنيا وما فيها من الخيرات ؟ ..

ان النعيم والملذات جزء — فيمـا رأى افلاطـون — من السـعادة ، ولابد لتتحقق السـعادة ، من أن يضاف الى ذلك العلم .. فالسعادة شطرها ملاذ ، وشطرها الثانى علم — واذا ألف الانسان بين العلم والملاذ فى تنسيق منسجم كان سعيدا ..

ويأتى أرسطو فلا يعبأ بكل ذلك ، ويرى ويعلن أن السعادة حكمة وعقل ، ويتمثل فى التوسط فى كل الأمور ..

ويسخر أبيقور من كل ذلك ، ويرى أن السعادة تتمثل فى الاستمتاع ..

ويسير الزمن ، ومع سيره تتعدد المذاهب والآراء ، ينقض بعضها بعضا ، ويهدم بعضها بعضا .. فاذا ما وصلنا الى العصر الحديث ، والنهضة الأوروبية ــ وهى نهضة تتسم بالمادية ــ ظهرت مذاهب المنفعة الشخصية ، أو المنفعة العامة .. وهذه المذاهب تؤسس السلوك على ما يثمر العمل من منفعة عامة أو خاصة ، ولا تضع فى ميزانها الفضيلة أو الخير ..

وشقيت الانسانية بكل ذلك ..

.. أن هذه العصور لم تخل قط ، من صوت ينادى بالرجوع الى الرحاب الالهى .. رحاب العصمة والسعادة الحقيقية .. وينطلق هذا الصوت ، من النبى ــ ثم يتابعه حواريون ، وأصحابه ، وأنصاره ، والصالحون من بعدهم ..

ويتمثل هذا الصوت فى نصوص الهية ، وفى أحاديث شريفة ومهما تعددت أساليب الدعوة الى السعادة فى أعراف المؤمنين ، فان المعنى لا يختلف من عصر الى عصر ، ولا من بيئة الى بيئة . ان الجميع ينادون :

« ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، الذين آمنو وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم (١) » .

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٢) » ..

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنـــة التى كنتم توعدون .. نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون .. نزلا من غفور رحيم (٣) » .

« استغفروا ربكم انه كان غفارا .. يرســـل السماء عليكم مدرارا .. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا (٤) » .

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه (٥) » ..

« ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا (٦) » ..

---

(١) يونس : ٦٢ - ٦٤
(٢) النحل : ٩٧
(٣) فصلت : ٣٠ - ٣٢
(٤) نوح : ١٠ - ١٢
(٥) الطلاق : ٣
(٦) الطلاق : ٤

« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز (١) » ..

« يا غلام : احفظ الله يحفظك .. احفظ الله تجده تجاهك .. اذا سألت فاسأل الله .. واذا استعنت فاستعن بالله .. واعلم ان الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك الا بشيء قد كتب الله عليك .. رفعت الأقلام وجفت الصحف (٢) » ..

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب .. وماتقرب الى عبدى بشيء أحب الى مما افترضته عليه وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها .. وان سألنى لأعطينه وان استعاذنى لأعيذنه .. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته (٣) » ..

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه .. من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة (٤) » ..

---

(١) الحج : ٤٠

(٢) رواه الترمذى

(٣) رواه البخارى

(٤) متفق عليه

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيـا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليـه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة .. والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه (١) » ..

ان لله سبحانه وتعالى حدودا .. من خرج عنها فهو الشقى، ومن سار فى اطارها فهو السعيد ..

ولقد أخذ ابن أدهم يبشر بالأخلاق كما رسمها الله سبحانه فى محكم كتابه ، وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من ثمرة ذلك مجموعة من النصائح والمواعظ والحكم من أنفس ما يكون ..

وهو وان لم يضعها فى نظام مذهبى على الوضع الحديث ، وهو وان لم ينسقها فى أبواب وفصول ، فان الميزة التى تتسم بها هى بقاؤها مشربة بطابع النضرة ، وبطابع الروحانية ..

ونحن نحب أن نوردها بطـابعها ، دون أن ندخل فيهـا أثر الصنعة المستحدثة ، من تنضيد أو ترتيب .. وان كنا مع ذلك قد قدمنا من آثاره فى ذلك ما يتصل على الخصوص بالهدف ..

حدث يونس بن سليمان أبو محمد البلخى قال :

---

(١) مسلم

قرأت كتاب ابراهيم بن أدهم الى عبد الملك مولاه :

أما بعد : أوصيك بتقوى الله .. انه جاء فى كتابك ـــ فوصلك الله ـــ تذكر ما جرى بيننا ، فمن رعى حق الله وفرحظه وسلم منه الناس .. ومن ترك حظه ولم يراقب حقه ولع به النـــاس وذلك الى الله ، ولا حول لنـــا ولا قوة الا بالله .. ثم ان القـــوم ناس مثلكم ، يغضبون ويرضون ، فكان الذى يقومهم اليه يرجعون، وبه يقنعون ، وبه يأخذون ، وبه يعظون .. فأثنى عليهم أحسن الثناء ، فاقتدوا بآثارهم وأفعالهم حتى أنتم على ملتهم .. وتمنون منازلهم .. ثم ان الله تعالى أحسن الينا وأبقانا بعـــد الجيران ، فنعوذ بالله أن يكون ابقاؤنا لشر ، فانه لايؤمن مكره ، والأعمال بالخواتيم .. وانه من خافه لم يضع ما يحب ، ولم يتكلم بمـــا يشتهى ..

وينبغى لصـــاحب الدين أن يرجو فى الـــكلام ما يرجو فى الفعل ، وأن يخاف منه ما يخاف من الفعل ، وذلك الى الله .. فان استطعت أن لا يكون عندك أحد هو آثر من الله فراقبه فى الغضب والرضـــا ، فانه يعلم السر وأخفى ، ويغفر ويعـــذب ، ولا منجا منه الا اليه ..

فان استطعت أن تكف عما لا يعنيك ، وأن تنظر لنفسك ، فانه لا يسعى لك غيرك ..

ان الناس قد طلبوا الدنيا بالغضب والرضا ، فلم ينالوا منها

حاجتهم ، وانه من أراد الآخرة ، كان الناس منه فى راحة، لا يخدع من ذلها ، ولا ينازعهم فى عزها .. هو من نفسه فى شغل ، والناس منه فى راحة ..

فاتق الله وعليك بالسداد ، فان من مضى انما قدموا على أعمالهم ، ولم يقدموا على الشرف والصيت والذكر .. فان الله تعالى أبى الا عدلا ، أعاننا الله واياكم على ما خلقنا له ، وبارك لنا ولكم فى بقية العمر فما شاء الله ..

وأما ما ذكرت من أمر القصر (١) ، فلا تشقوا على أنفسكم .. ان جاءكم أمر فى عافية فلله الحمد ، وان كانت بلية فلا تعدلوا بالسلامة .. فانه من ترك من أمر ما لا ينبغى أحق بالجزع منكم .

انا قد أيقنا أن الناس لا يذهبون بحقوق الناس ، والله معط كل ذى حق حقه ، وسعى الناس لهم وعليهم ، والجزاء غدا ..

فان استطعتم أن لا تلقوا الله بمظالم ! .. فاما ما أظلمتم فلا تخافوا الغلبة فان الله تعالى لا يعجزه شىء .. فمن علم أن الأمور هكذا فليكبر على نفسه ، وليقبض ما عليها ، فان هذا أشده وأضره .. حسبنا الله ونعم الوكيل . وأما من بقى من بقية الجيران فأقرهم السلام ، فقد طال العهد ..

---

(١) قصر كان له بعث اليه يستشيره فيه

وقال شريك : سـألت ابراهيم بن أدهم عما كان بين على ومعاوية فبكى .. فندمت على سؤالى اياه .. فرفع رأسه فقال:

« ان من عرف نفسه اشتغل بنفسه ، ومن عرف ربه اشتغل بربه عن غيره » ..

وكان يقول :

« اياكم والكبر .. اياكم والاعجاب بالأعمال .. انظروا الى من دونكم ، ولا تنظروا الى من فوقكم .. من ذلل نفسه رفعه مولاه ، ومن خضع له أعزه ، ومن اتقاه وقاه ، ومن أطاعه أنجاه، ومن أقبل اليه أرضاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن سأله أعطاه ، ومن أقرضه قضاه ، ومن شكره جازاه ، فينبغى للعبد أن يزن نفسـه قبل أن يحاسب ، ويتزين ويتهيأ للعرض على الله العلى الأكبر ..

ومن أقواله :

« اشغلوا قلوبكم بالخـوف من الله ، وأبدانكم بالدأب فى طاعة الله ، ووجوهكم بالحياء من الله ، وألسنتكم بذكر الله ، وغضوا أبصاركم عن محارم الله ، فان الله تعالى أوحى الى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

يا محمد ! .. كل ساعة تذكرنى فيها ، فهى لك مذخورة ، والساعة التى لا تذكرنى فيها فليس لك .. هى عليك لا لك » ..

وعن الحجاج بن مسهر ، قال : قال ابراهيم بن أدهم :

« محال أن تواليه ولا يواليك » ..

وقال ابراهيم بن بشار ، سمعت ابراهيم يقول :

«بلغنى أن عمر بن عبد العزيز قال لخالد بن صفوان : عظنى وأوجز .. فقال خالد : يا أمير المؤمنين ! .. ان أقواما غرهم ستر الله ، وفتنهم حسن الثنـاء ، فلا يغلبن جهـل غيرك بك علمك بنفسك ، أعاذنا الله واياك أن نكون بالستر مغرورين ، وبثنـاء الناس مسرورين ، وعما افترض الله علينا متخلفين ومقصرين ، والى الأهواء مائلين .. قال : فبكى ، ثم قال :

« أعاذنا الله واياك من اتباع الهوى » ..

وقال ابن أدهم :

« اذا بات الملوك على اختيارهم ، فبت على اختيار الله لك، وارض به » ..

وكان يقول :

« ان للموت كأسا لا يقوى على تجرعه الا خائف وجل طائع كان يتوقعه .. فمن كان مطيعا فله الحياة والكرامة والنجاة من عذاب القبر ، ومن كان عاصيا نزل بين الحسرة والنـدامة يوم الصاخة والطامة ..

وكان يقول :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

ويقول :

« اياكم والغرة بالله ، لا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » ..

وسئل عما كان بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، فبكى كثيرا ، ثم رفع رأسه الى السماء فقال :

« من عرف نفسه اشتغل عن غيره » ..

وقال ابن بشار ، سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« ما بالنا نشكو فقرنا الى مثلنا ، ولا نطلب كشفه من ربنا .. هل يتأتى أن يحب عبد عبدا لدنياه ، وينسى ماف خزائن مولاه » ..

قال : ونظر ابراهيم الى رجل قد أصيب بمال ومتاع ووقع الحريق فى دكانه ، فاشتد جزعه حتى خولط فى عقله .. فقال :

يا عبد الله ! .. ان المال مال الله ، متعك به اذ شاء ، وأخذه منك اذ ما شاء فاصبر لأمره ولا تجزع ، فان من تمام شكر الله على العافية ، الصبر له على البلية ، ومن قدم وجد ، ومن تأخر فقد وندم ..

ثم قال :

هكذا كثيرا : دارنا أمامنا ، وحياتنا بعد موتنا ، اما الى جنة واما الى نار وقال ابراهيم بن أدهم :

« بلغني أن الحسن البصرى رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه فقال : يا رسول الله عظني ! ..

فقال :

« من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان غده شرا من يومه فهو ملعون ، ومن لم يتعاهد النقصان من نفسه فهو فى نقصان ، ومن كان فى نقصان فالموت خير له » ..

وقال :

« خالفتم الله فيما أنذر وحذر ، وعصيتموه فيما نهى وأمر ، وكذبتموه فيماوعد وبشر ، وكفرتموه فيما أنعم وقدر .. وانما تحصدون ما تزرعون ، وتجنون ما تغرسون ، وتكافئون بما تفعلون ، وتجزون بما تعملون ، فاعلموا ان كنتم تعقلون ؛ وانتبهوا من وسن رقدتكم لعلكم تفلحون » ..

وقال :

« الله الله فى هذه الأرواح والأبدان الضعيفة .. الحذر الحذر .. الجد الجد .. كونوا على حياء من الله .. فوالله لقد

ستر وأمهل ، وجاد فأحسن .. حتى كأنه قد غفر ، كرما منه لخلقه » ..

وقال :

« قلة الحرص والطمع تورث الصدق والورع .. وكثرة الحرص والطمع تورث كثرة الغم والجزع » ..

وقال ابن أدهم :

« على القلب ثلاثة أغطية : الفرح ، والحزن ، والسرور » .
فاذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، والحريص محروم ..
واذا حزنت على المفقود فأنت ساخط ، والساخط معذب ..
واذا سررت بالمدح فأنت معجب ، والعجب يحبط العمل ..
ودليل ذلك كله قوله تعالى :

« لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ..

وقال ابراهيم :

« اتخذ الله صاحبا ، وذر الناس جانبا : قل الله ، ثم ذرهم»

وقال :

« من قال لأخيه أعطنى من مالك ، فقال : كم تريد ؟ .. فما قام بحق الاخوة ــ ومن دعاه الى حاجة فقال : الى أين ؟ .. فما قام بحق الصحبة » ..

وقال :

« طلب الملوك شيئا ففاتهم ، وطلبناه فوجدناه » ..

وقال :

« ذهب السخاء والكرم والجود ، فمن لم يواس النـاس بذلك فليواسهم ببسط الوجه وحسن الخلق » ..

وقال : قال لقمان عليه السلام :

« لا يعرف الحليم الا عند الغضب ، ولا الشـجاع الا فى الحرب ، ولا الاخوان الا عند الحاجة » ..

وقال :

« من لؤم الرجل أن يرفع يده من الطعام قبل أصحابه » ..

وقال :

« حب لقاء الناس من حب الدنيا ، وتركهم من ترك الدنيا ، ومن أحب الشهرة لم يصدق الله فى أعماله » ..

وقال :

« ما أغفل أهل الدنيا عنا ، ما فى الدنيا أنعم عيشا منا » ..

وقال :

« كثرة النظر الى الباطل ، تذهب بمعرفة الحق من القلب »

وقال :

« كل سلطان لا يكون عادلا ، فهو واللص ســواء ، بمنزلة واحدة .. وكل عالم لا يكون ورعا فهو والذئب بمنزلة واحدة . وكل من يخدم سوى الله فهو والكلب سواء » ..

وقال :

« رآنى محمد بن عجلان ، فاستقبل القبلة ثم سجد ، فقال: « أتدرى لم سجدت ؟ .. سجدت شــكرا لله تعــالى حيث رأيتك » ..

وقال :

« اذكر ما أنت صائر اليه حق ذكره ، وتفكر فيما مضى من عمرك هل تثق به ، وترجو النجــاة من عذاب ربك ، فانك اذا كنت كذلك شغلت قلبك بالاهتمــام بطريق النجــاة عن طريق اللاهين الآمنين المطمئنين الذين اتبعوا أنفسهم هواها ، فأوقعتهم على طريق هلكاتهم .. لاجرم سوف يعلمون ، وسوف يتأسفون وسوف يندمون » ..

(وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) ! ..

وقال الوليد بن مسلم : حدثنا بعض اخواننا قال :

« دخلنا على ابراهيم بن أدهم فسلمنا عليه ، فرفع رأســه

الينا فقال : « اللهم لا تمقتنا » .. وأطرق رأسه ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

انه اذا لم يمقتنا أحبنا .. ثم قال : تكلمنا ـ أو نطقنا ـ بالعربية ، فما نكاد نلحن .. ولحنا بالعمل فما نكاد نعرب » ..

وقال ابراهيم بن بشار : سألت ابراهيم بن أدهم عن العبادة فقال :

« رأس العبادة التفكر ، والصمت الا من ذكر الله .. ولقد بلغنى حرف ـــ يعنى عن لقمان ـــ قال :

قيل له : يا لقمان ما بلغ من حكمتك ؟ ..

قال :

لا أسأل عما قد كفيت ، ولا أتكلف مالا يعنينى .. ثم قال:

يا ابن بشار ! .. انما ينبغى للعبد أن يصمت ، أو يتكلم بما ينتفع به . أو ينفع به من موعظة ، أو تنبيه ، أو تخويف ، أو تحذير .. واعلم أنه اذا كان الكلام مثل كان أوضح للمنطق ، وأبين فى القياس ، وأنقى للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث..

يا ابن بشار : مثل لبصر قلبك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك فانظر كيف تكون .. ومثل له هول المطلع ومسألة منكر ونكير ، فانظر كيف تكون ، ومثل له القيامة وأهوالها

وأفزاعها .. والعرض والحساب والوقوف ، فانظر كيف تكون ، ثم صرخ صرخة فوقع مغشيا عليه » ..

وقال ابراهيم بن بشار :

« كتب عمر بن المنهال القرشى الى ابراهيم بن أدهم وهو بالرملة .. أن عظنى عظة أحفظها عنك .. فكتب اليه :

« أما بعـد ، فان الحزن على الدنيـا طويل ، والموت من الانسان قريب ، وللنفس منـه فى كل وقت نصيب ، وللبلى فى جسمه دبيب ، فبادر بالعمل قبل أن تنادى بالرحيل ، واجتهد فى العمل فى دار الممر قبل أن ترحل الى دار المقر » ..

وقال أبو جعفـر محمـد بن عبـد الرحمن السروجى — بسروج — :

« كتب ابراهيم بن أدهم الى بعض اخوانه ..

أما بعد ، فعليك بتقوى الله الذى لا تحـل معصيته ، ولا يرجى غيره .. واتق الله فانه من اتقى الله عز وجـل عز وقوى وشبع وروى ، ورفع عقله عن الدنيا .. فبدنه منظور بين ظهرانى أهل الدنيا ، وقلبه معاين للآخرة .. فأطفأ بصر قلبه ما أبصرت عيناه من حب الدنيا ، فقذر حرامها ، وجانب شهواتها ، وأضر بالحلال الصافى منها ، الا مالا بدله .. من كسرة يشد بها صلبه ، أو ثوب يوارى عورته ، من أغلظ ما يقدر عليه وأخشنه ، ليس

له ثقة ولا رجاء الا الله .. قد رفعت ثقته ورجاؤه من كل شيء مخلوق ، ووقعت ثقته ورجاؤه على خالق الأشياء .. فجد وهزل، وأنهك بدنه لله ، حتى غارت العينان ، وبدت الأضلاع .. وأبدله الله تعالى بذلك زيادة فى عقله ، وقوة فى قلبه .. وما أخر له فى الآخرة أكثر .. فارفض يا أخى الدنيا ، فان حب الدنيا يصم ويعمى ، ويذل الرقاب ، ولا تقل غدا وبعد غد ، فانما هلك من هلك باقامتهم على الأمانى ، حتى جاءهم الحق بغتة وهم غافلون .. فنقلوا على اصرارهم الى القبور المظلمة الضيقة .. وأسلمهم الأهلون والولد .. فانقطع الى الله بقلب منيب وعزم ليس فيه شك ، والسلام » ..

وعن خالد بن الحارث قال :

« بلغنى أن ابراهيم بن أدهم قال :

لم يصدق الله من أحب الشهرة » ..

وقال :

« لا يقل مع الحق فريد ، ولا يقوى مع الباطل عديد » ..

وحدث ابراهيم بن بشار قال : سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« من الله عليكم بالاسلام ، فأخرجكم من الشقاء الى السعادة ، ومن الشدة الى الرخاء ، ومن الظلمات الى الضياء ..

فشبتم نعمته عليكم بالكفران ، ومررتم بالخطأ حلاوة الايمان ، ووهنتم بالذنوب عرى الايمان ، وهدمتم الطاعة بالعصيان ، وانما تمرون بمراصد الآفات ، وتمضون على جسور الهلكات ، وتبنون على قناطر الزلات .. وتحصنون بمحاض الشهوات .. فيا لله تغترون ، وعليه يجترءون ، ولأنفسكم تخدعون ولله لا تراقبون ، فانا لله وانا اليه راجعون ..

قال ابن بشار :

وسمعت ابن أدهم يقول :

« أنعم الله عليك فلم تكن فى وقت أنعمه شكورا ، لا يغررك حلمه ، واذكر مصيرك الى القبور ، واعمل ليومك يا أخى قبل حشرجة الصدور » ..

وقال ابراهيم بن أدهم : قال لقمان لابنه :

« يا بنى : ان الرجل ليتكلم حتى يقال أحمق ، وما هو بأحمق .. وان الرجل ليسكت حتى يقال له حليم وما هو بحليم ».

وقال أبى سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« كثرة النظر الى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب » .

ويقول ابراهيم بن بشار سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« والله ما الحياة بثقة فيرجى يومها ، ولا المنية تغدر فيؤمن

غدرها ، ففيم التفريط والتقصير والاتكال والتأخير والابطاء ؟ وأمر الله جـد » .

وقال ابراهيم بن أدهم للاوزاعى : يا أبا عمرو كثيرا ما يقول مالك بن دينار :

« ان من عرف الله تعالى فى شغل شاغل ، وويل لمن ذهب عمره باطلا » ..

وروى عبد الرحمن بن الضحاك عن ابراهيم بن أدهم قال :

مكتوب فى بعض كتب الله : من أصبح حزينا على الدنيا ، فقد أصبح ساخطا على الله ، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به أصبح يشكو ربه ، وأيما فقير جلس الى غنى فتضعضع له لدنياه ذهب ثلثا دينه ، ومن قرأ القرآن فاتخذ آيات الله هزوا أدخل النار .

قال ابراهيم بن أدهم :

لولا ثلاث ما باليت أن أكون يعسوبا ، ظمأ الهواجر ، وطول ليلة الشتاء ، والتهجد بكتاب الله عز وجل » .

وعن طالوت قال : سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

ما صدق الله عبد أحب الشهرة » .

وقال ابراهيم بن أدهم :

رأيت فى النوم كأن قائلا يقول لى :

« أو يحسن بالحر المريد أن يتذلل للعبيد وهو يجد عند مولاه ما يريد ؟ » .

وعنه رضى الله عنه قال :

« لا تجعل بينك وبين الله منعما ، وعد نعمة من غيره عليك مغرما » ..

وقال :

أثقل الأعمال فى الميزان أثقلها على الأبدان .. ومن وفى العمل وفى الأجر ، ومن لم يعمل رحل من الدنيا الى الآخرة بلا قليل ولا كثير ..

وقال ابراهيم بن بشار :

« وقف رجل صوفى على ابراهيم بن أدهم ، فقال :

يا أبا اسحاق ؟ لم حجبت القلوب عن الله ؟ ..

قال :

لأنها أحبت ما أبغض الله .. أحبت الدنيا ومالت الى دار الغرور واللهو واللعب ، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد ، فى نعيم لا يزول ، ولا ينفد ، خالدا مخلدا ، فى ملك سرمد لا نفاد له ولا انقطاع ..

قال : وسمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« اذا أردت أن تعرف الشيء بفضله ، فاقلبه بضده .. فاذا أنت قد عرفت فضله .. اقلب الأمانة الى الخيانة ، والصدق الى الكذب ، والايمان الى الكفر .. فاذا أنت قد عرفت فضل ما أتيت » ..

وقال ابراهيم بن أدهم :

« المسألة مسألتان : مسألة على ابواب الناس ، ومسألة يقول الرجل ألزم المسجد وأصلى ، وأصوم وأعبد الله ، فمن جاءنى بشيء قبلته .. فهذه شر المسألتين ، وهذا قد ألحف فى المسألة »

وكان يقــول :

« ما صدق اللهعبد أحب الشهرة بعلم أو عمل أو كرم »

وقال فى تفسير قوله تعــالى :

« تلك الدار الآخــــرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض »

من حب العلو أن تستحسن شسع نعلك على شسع نعــل أخيك » .

وصحب رضى الله عنه رجلا ، فلما أراد أن يفــارقه قال له الرجل :

« ان كنت رأيت فى عيبا فنبهنى عليه » ..

فقال له ابراهيم :

لم أر فيك يا أخى عيبا ، لأنى لاحظتك بعين الوداد فاستحسنت كل ما رأيته منك ، فاسأل غيرى » .

وكان رضى الله عنه ، يقول :

« اطلبوا العلم للعمل ، فان أكثر الناس قد غلطوا حتى صار علمهم كالجبال ، وعملهم كالذر » ..

وقال بقية ، سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« عالجت العبادة فما وجدت شيئا أشد على من نزاع النفس الى الوطن » ..

وقال مضاء : قال ابراهيم بن أدهم :

« ما قاسيت فيما تركت شيئا أشد على من مفارقة الأوطان » .

ومن كلماته :

« منذ عشرين سنة أطلب أخا اذا غضب على لم يقل الا الحق ، فلم أجده » ..

ومن فوائده :

« ان الرجل الحر الكريم ، من تخرج نفسه عن الدنيا ، قبل أن يخرج منهـا » ..

وقـال :

« لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم ، والسرور ، ولذة العيش ، وقلة التعب ، لجالدونا عليه بالسيوف .. طلبوا الراحة والنعيم ، فأخطأوا الصراط المستقيم » .

ولما قدم سفيان الثورى رضى الله عنه الرملة ، أرسل اليه ابن ادهم ــ رحمه الله ــ أن تعال فحدثنا ، فجاءهم ، فقيل له : تبعث اليه بمثل هـذا هـكذا .. قال : أردت أن أنظر كيف تواضـعه » ..

وروى ابراهيم بسنده ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنـه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل ، لا يتعلمـه الا ليصيب به عرضا من الدنيا ، لم يجـد عرف (١) الجنة يوم القيامة ــ يعنى ريحها » ..

---

(١) أى ريح

وروى ــ بسنده ــ عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الله تعالى يعذب الموحدين ، بقدر نقصان ايمانهم ، ثم يردهم الى الجنة ، خلودا دائما » ..

وعن ابراهيم بن بشـــار قال : ســمعت ابراهيم بن أدهم يقــول :

« الهوى يردى ، وخوف الله يشفى .. واعلم أن ما يزيل عن قلبك هواك ، اذا خفت من تعلم أنه يراك » ..

وعن بقية قال :

« كان ابراهيم بن أدهم اذا قيل له : كيف أنت ؟ .. قال : بخير ، ما لم يحمل مئونتى غيرى » . .

ومن أقواله :

« أثقل الأعمال فى الميزان ، أثقلها على الأبدان .. ومن وفى بالعمل ، وفى له بالأجر ، ومن لا عمل له ، لا أجر له » ..

وعن ابن بشـــار قال :

« أمسينا مع ابراهيم بن أدهم ذات ليلة ، وليس معنا شىء نفطر عليه ، ولا بنا حيلة ، فرآنى مغتما حزينا ، فقال :

« يا ابراهيم بن بشار ! .. ماذا أنعم الله تعالى على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة فى الدنيا والآخرة ؟ .. لا يسألهم الله يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج ، ولا عن صدقة ، ولا عن صلة رحم ، ولا عن مواساة ــ وانما يسأل ويحاسب عن هــذا هؤلاء المساكين .. أغنياء فى الدنيا ، فقراء فى لآخرة .. أعزة فى الدنيا ، أذلة يوم القيامة ..

لا تغتم ولا تحزن ، فرزق الله مضمون سيأتيك ، نحن والله الملوك الأغنياء .. لا نبالى على أى حال أصبحنا وأمسينا اذا أطعنا الله عز وجل ــ ثم قام الى صلاته ، وقمت الى صــلاتى .. فما لبثنا الا ساعة ، اذا نحن برجل قد جاء بثمانية أرغفة ، وتمر كثير .. فوضعه بين أيدينا ، وقال : كلوا رحمــكم الله ، قال : فسلم وقال : كل يا مغموم .. فدخل سائل فقــال : أطعمونى شيئا .. فأخذ ثلاثة أرغفة مع تمر ، فدفعه اليه ، وأعطانى ثلاثة، وأكل رغيفين ، وقال : المواساة من أخلاق المؤمنين »

وقال ابراهيم بن أدهم :

« كان عطاء السليمى اذا استيقظ من الليل ، مس جــلده مخافة أن يكون قد حدث فى جســده شيء بذنوبه .. ومرض مرضــا خيف عليه المــوت منه ، فقيــل له : أما تشتهى شيئا نجيئك به ؟

فقال : ما أبقى الله عز وجل فى جوفى موضعا للشهوات » ..

الفصل الرابع

الطريق

وأول الطـريق فى عـرف ابراهيم بن أدهم ، وفى عـرف الصوفية علىوجه العموم ، انما هو التوبة .. يقول ابن أدهم :

« انك اذا أدمت النظر فى مرآة التوبة ، بان لك شين قبح المعصية » ..

والواقع أن التوبة الصادقة النصوح : هى الابتداء الطبيعى فى الطريق الى الله — ومن أجل ذلك حث الله ورسوله عليها فى شتى الأساليب ..

أنظر الى هذا الأسلوب الرءوف الرحيم ، حينما يقـول الله تعالى فى حديث قدسى :

« يا عبادى ؟.. انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفـر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم » (١)

ولقد فتح الله أبواب رحمته على مصاريعها أمام العاصين ، فقال سبحانه :

---

(١) رواه مسلم

« ان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفـر ما دون ذلك لمن يشـاء » (١)

وقال :

(قل يا عبـادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمـة الله ان الله يغفـر الذنوب جميعا ، انه هـو الغفـور الرحيم) (٢)

ولقد أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يفـرح بتوبة عبده المؤمن فقـال :

« لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعـيره وقد أضله فى أرض فلاة » (٣)

وقـال :

« لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب اليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته.. فبينما هو كذلك .. اذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح :

---

(١) النساء : ٤٨
(٢) الزمر : ٥٣
(٣) متفق عليه

اللهم أنت عبدى وأنا ربك .. أخطأ من شدة الفرح » (١)

وان الملائكة لتدعو للتائبين ، فى أسلوب كله جمـال ورقة ورأفة :

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم .. ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صـلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هـو الفـوز العظيم » (٢) ..

والله سبحانه وتعالى يصـلى على عباده ، ليخـرجهم من ظلمات المعصية الى نور الطاعة :

« هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما .. تحيتهم يوم يلقونه سـلام وأعـد لهم أجـرا كريما » (٣) ..

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوب الى الله ويستغفره فى اليوم مائة مرة :

---

(١) رواه مسلم
(٢) غافر : ٧ — ٩
(٣) الاحزاب : ٤٣ ، ٤٤

عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول :

« والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثـر من سـبعين مرة » (١) ..

وعن الأغر بن يسار المزنى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها الناس ! .. توبوا الى الله واستغفروه ، فانى أتوب فى اليـوم مائة مرة » (٢) ..

وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوب عن ذنب، كلا ، وحاشاه صلى الله عليه وسلم وهو السراج المنير .. وهـو النور والرحمة ، وهو المعصوم ، أن يأتى الذنب ..

وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوب عن غفلة .. كلا ، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن تنتابه الغفلة ، وهو مع الله فى صـلاته ونسـكه ، ومحياه وممـاته ، كما تعبر الآية الكريمة :

(قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ـ لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين) ..

---

(١) البخارى
(٢) مسلم

لم كان يتوب صلى الله عليه وسلم ؟..

انه يتــوب لأمرين :

أولا : لأن التوبة أمر بها الله تعالى ــ فهو ينفذ الأمر الالهى، وهو بذلك يطيع الله .. فتوبته عبادة ــ انه يتوب توبة عبادة .. والتوبة من أسمى القربات ، ومن أجل العبادات .. وذلك أنهــا تعبر عن الذلة لله ، والانكسار له ، والخضوع ، والتواضع .. وكل ذلك انما هو البــاب الذى يلج فيه الانســان الى ساحة الله الرحيمة ..

ان الانسان لا يلج ساحة مرضاة الله بكبر .. كلا ، والمتكبر لا مكان له فى الجنة ، ولا فى مرضاة الله ..

ان الله يقول لابليس :

(فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) (١) ..

لا مكان فى الجنة لمتكبــر ، والمتكبر مطرود من رحمــة الله ..

والتوبة هى المظهر لعــدم التــكبر ، انها معارضة لموقف المطرودين من الجنة ..

---

(١) الاعراف : ١٣

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوب الى الله توبة عبودية وانكسار ..

أما الأمر الثانى الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر التوبة من أجله ، فهو الدخول فى حب الله سبحانه له ..

ان الله أعلن أنه يحب التوابين :

(ان الله يحب التوابين) ..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يدخل الى حب الله له من كل باب يوصل الى ذلك .. فهو يدخل من باب الاحسان ، لأن الله تعالى يقول :

(ان الله يحب المحسنين) ..

ويدخل من باب التقوى ، لأن الله تعالى يقول :

(ان الله يحب المتقين) ..

ويدخل من باب الصبر لأن الله يقول :

(والله يحب الصابرين) ..

وكذلك يدخل من باب التوبة ، لأن الله يقول :

(ان الله يحب التوابين)

ويدخل من كل باب يؤدى الى حب الله ومرضاته ..

وأول الطريق ــ اذن ــ كما يرسمه ابن ادهم ، هو التوبة ..

وإذا صدقت التوبة استتبعت العمل ، وكان لها مظاهر ، وهذه المظاهر لصدق التوبة كثيرة ، منها مثلا :

ما رواه عبد الله بن داود قال : قال ابراهيم بن أدهم :

(خرجت أريد بيت المقدس ، فلقيت سبعة نفر ، فسلمت عليهم وقلت : أفيدونى شيئا لعل الله ينفعنى به .. فقالوا لى :

انظر كل قاطع يقطعك عن الله من أمر الدنيا والآخرة فاقطعه، فقلت : زيدونى رحمكم الله .. قالوا : انظر ألا ترجو أحدا غير الله ، ولا تخاف غيره .. فقلت : زيدونى رحمكم الله .. قالوا : أنظر كل من يحبه فأحبه ، وكل من يبغضه فابغضه ..

قلت : زيدونى رحمكم الله .. قالوا : عليك بالدعاء والتضرع والبكاء فى الخلوات والتواضع والخضوع له حيث كنت ، والرحمة للمسلمين والنصح لهم ..

فقلت لهم : زيدونى رحمكم الله .. فقالوا :

« اللهم خل بيننا وبين هذا الذى شغلنا عنك .. ما كفاه هذا كله ..

فلا أدرى السماء رفعتهم ، أم الأرض ابتلعتهم ، فلم أرهم ونفعنى الله بهم » ..

ومنها ما قاله ابن أدهم لرجل فى الطواف :

اعلم أنك لاتنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات :

أولاها : تغلق باب النعمة ، وتفتح باب الشدة ـ « والنعمة هنا الترف والكسل والتراخى ، والشدة : أن يحمل نفسه على أداء التكاليف » ..

والثانية : تغلق باب العز ، وتفتح باب الذل .. « والعز هنا يدخل فيه الكبر والخيلاء والزهو ، أما الذل فانه التواضع والانكسار » ..

والثالثة : تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجد ..

والرابعة : تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر ..

والخامسة : تغلق باب الغنى ، وتفتح باب الفقر « يقول تعالى : ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى » .. والمعنى : أن تغلق باب الغنى عن الله ، وتفتح باب الفقر والافتقار اليه ..

والسادسة : تغلق باب الأمل ، وتفتح باب الاستعداد للموت » ..

ومنها ما قاله ابراهيم بن أدهم ، عن وصية الله لآدم :

« أول ما كلم الله تعالى آدم عليه السلام قال :

أوصيك بأربع ، ان لقيتنى بهن أدخلتك الجنة ، ومن لقينى بهن من ولدك أدخلته الجنة ، واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك ، وواحدة بينى وبينك وبين الناس ..

فأما التى لى : فتعبدنى ولا تشرك بى شيئا ..

وأما التى لك : فما عملت من عمل وفيتك اياه ..

وأما التى بينى وبينك : فمنك الدعاء ومنى الاجابة ..

وأما التى بينى وبينك وبين الناس : فما كرهت لنفسك فلا تأته الى غيرك ..

وتتوالى نصائح ابراهيم بن أدهم فى مظاهر صدق التوبة، فيقــول :

« لاتطمع فى الأنس بالله ، مع الأنس بالخلق، ولا فى الحكمة مع ترك التقــوى » ..

ويقول :

« علامة نور القلب : أن يكون أكثر هم صاحبه العبادة ، وأكثر كلامه الثناء على الله ، وحكايات الصالحين » ..

وقــال :

« انما يزول عن قلبك هــواك ، اذا خفت من تعــلم أنه يراك » ..

وقــال :

« انما حجبت القلوب عن الله ، لكونها أحبت ما أبغضه ، فمالت للدنيا ، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد » ..

اذا صدقت التوبة استتبعت العمل كما قلنا ، أما غاية العمل: فان ابن أدهم ينبه عليها فى هذا المعنى السامى فيما يقوله لأبى زيد الجذامى :

يا أبا زيد ! .. ما ترى غاية العابدين من الله تعالى غــدا فى أنفسهم ؟ ..

قال أبو زيد : الذى أظن سكنى الجنة .. قال : لقد ظننت ظنا ، ووالله انى لأدرى أن أكبر الأمر عندهم أن لايعرض بوجهه الكريم عنهم » ..

وتنتهى التوبة الصادقة لا محالة الى التقوى :

يروى ابراهيم بن بشار عن ابراهيم بن أدهم قال : قــال الله عز وجل :

(ومن يطــع الله ورســوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) .. فأعلمك أن بتقواه يستوجب جميل الثــواب ، وينجو المتقون من سكرات يوم الحساب ، ويؤولون الى خير باب .. ثم قال : صدق الله :

(ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ..

الورع :

واذا صدقت التوبة أثمرت الورع .. يقول شيخنا :

(تب الى الله ينبت الورع فى قلبك) ..

ويساعد على وراثة الورع أمور : يقول ابن أدهم :

(قلة الحرص والطمع .. تورث الصدق والورع .. وكثرة الحرص والطمع ، تورث الهم والجزع) ..

أما تمام الورع ، فان ابن أدهم قد سئل عنه فيما يحكى ابراهيم بن بشار ، قال : سئل ابراهيم بن أدهم : بم يتم الورع؟ قال :

بتسوية كل الخلق من قلبك ، واشتغالك عن عيوبهم بذنبك، وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جليل .. فكر فى ذنبك، وتب الى ربك ، يثبت الورع فى قلبك ، وأحسم الطمع الا من ربك) ..

ومما لاشك فيه أن منزلة الورع فى الاسلام كبيرة .. انه تحرى الحلال .. وهو أن لا يأتى الانسان شيئا أو يدعه الا وهو على يقين من أن ذلك هو مرضاة الله سبحانه .. والآثار فى ذلك كثيرة :

منها ما رواه البخارى وغيره ـ بسنده ـ عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كراعى يرعى حول

الحمى يوشك أن يواقعه .. ألا وان لكل ملك حمى ، ألا وان حمى الله فى أرضه محارمه .. ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله .. ألا وهى القلب » ..

وعن ابن عباس قال :

تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) .. فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يارسول الله !.. ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال : يا سعد ! أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده ، ان الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به ..

الزهد :

واذا صدق الورع أسلم الى الزهد ..

ويروى ابراهيم بن أدهم فى ذلك بعض الأحاديث الشريفة.. فيروى عن أرطاة – يعنى ابن المنذر – قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله !.. علمنى عملا يحبنى الله تعالى عليه ، ويحبنى الناس .. قال : أما ما يحبك الله

تعالى عليه ، فالزهد فى الدنيا .. وأما ما يحبك الناس عليه فما كان فى يدك فانبذه اليهم » ..

ويروى ابراهيم بن أدهم — بسنده — عن يونس ، أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « دلنى على عمل اذا أنا عملته أحبنى الله عز وجل ، وأحبنى الناس عليه ..

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم :

« ازهد فى الدنيا يحبك الله وأما الناس فانبذ اليهم هذا يحبوك »

ويصنف ابن أدهم الزهد فيقول :

« الزهد ثلاثة أصناف : فزهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد سلامة :

فالفرض : الزهد فى الحرام ، والفضل : الزهد فى الحلال، والسلامة الزهد فى الشبهات .

وقد تتساءل عن غاية الزاهدين ، فيجيبك شيخنا :

« انما زهد الزاهدون فى الدنيا ، اتقاء أن يشركوا الحمقى والجهال فى جهلهم ..

ومن مظاهر الزهد عند ابن أدهم ، أنه قيل له :

ان اللحم قد غلا ، فقال : أرخصوه .. أى لا تشتروه .

وقد كتبنا عن معنى الزهد عند الصوفية، فى مقدمة الكتاب، ورأينا أن المعنى الذى يفهمه الناس عن الزهد عند الصوفية غير دقيق ..

المحبـــــــــة :

من طريف ما يروى عن المحبة بالنسبة لشيخنا ، ما رواه فارس النجار قـال :

« بلغنى أن ابراهيم بن أدهم رأى فى المنام كأن جبريل عليه السلام قد نزل الى الأرضِ ، فقال له : لم نزلت الى الأرض ؟.. قال : لأكتب المحبين .. قال : مثل من ؟.. قال : مثل مالك بن دينار ، وثابت البنانى ، وأيوب السختيانى ، وعد جماعات قال: أنا منهم ؟.. قال : لا .. فقلت : فاذا اكتبتهم فاكتب تحتهم محب للمحبين .. قال : فنزل الوحى : اكتبه أولهم » ..

ويفسر ابراهيم بن أدهم قوله تعالى :

« فمنهم ظالم لنفسـه ، ومنهم مقتصـد ، ومنهم سـابق بالخيرات » ..

قال : السابق مضروب بسـوط المحبة ، مقتـول بسيف الشوق، مضطجع على باب الكرامة .. والمقتصد مضروب بسوط الندامة .. مقتول بسيف الحسرة ، مضطجع على باب العفو ..

والظالم لنفسه مضروب بسوط الغفلة ، مقتول بسيف الأمل ، مضطجع على باب العقـوبة » ..

ويتحدث ابراهيم بن أدهم الى الناس ، فى قوة مبينا لهم ما يصرفهم عن أن يصلوا الى درجة المحبة ، وهو حديث يبين فى الوقت نفسه الطريق اليها ، فيقـول :

« ليس من أعـلام الحب أن تحب ما يبغض حبيبك ، ذم مولانا الدنيا فمدحناه وأبغضها فأحببناها ، وزهدنا فيها فآثرناها ورغبنا فى طلبها ، وعدكم خراب الدنيا فحصنتموها ، ونهيتم عن طلبها فطلبتموها ، وانذرتم الكنوز فكنزتموها .. دعتكم الى هذه الغـرارة دواعيها ، فأجبتم مسرعين مناديها ، خـدعتكم بغرورها ومنتكم فانقـدتم خاضـعين لأمنيتها ، تتمرغون فى زهواتها، وتتمتعون فى لذاتها، وتتقلبون فى شهواتها، وتتلوثون بتبعاتها .. تنبشون بمخالب الحرص عن خزائنها ، وتحفـرون بمعاول الطمع فى معادنها، وتبنون بالغفلة فى أماكنها، وتحصنون بالجهل فى مسـاكنها .. تريدون أن تجـاوروا الله فى داره ، وتحطوا رحالكم بقربه ، بين أوليائه وأصفيائه ، وأهل ولايته، وأنتم غرقى فى بحار الدنيا حيارى ترتعون فى زهواتها ، وتتمتعون فى لذاتها ، وتتنافسون فى غمراتها ، فمن جميعها ما تشبعون ، ومن التنافس فيها ما تملون ، كذبتكم والله أنفسكم ، وغرتكم ومنتكم الأمانى ، وعللتكم بالتوانى ، حتى لا تعطـوا اليقين

من قلوبكم ، والصدق من نياتكم ، وتتنصلون اليه من مساوى ذنوبكم ، وتعصوه فى بقية أعماركم ، أما سمعتم الله تعالى يقول فى محكم كتابه :

« أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » .

لاتنال جنته الا بطاعته ، ولا تنال ولايته الا بمحبته ، ولا تنال مرضاته الا بترك معصيته ، فان الله تعالى قد أعد المغفرة للأوابين ، وأعد الرحمة للتوابين ، وأعد الجنة للخائفين ، وأعد الحور للمطيعين ، وأعد رؤيته للمشتاقين ، قال الله تعالى :

« وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ».. من طريق العمى الى طريق الهدى ..

والمحب منصرف الى العبادة :

قال ابراهيم بن أدهم ذات يوم :

« لو أن العباد علموا حب الله عز وجل ، لقل مطعمهم ومشربهم ، وملبسهم وحرصهم ، وذلك أن ملائكة الله أحبوا الله فاشتغلوا بعبادته عن غيره ، حتى ان منهم قائما وراكعا وساجدا، منذ خلق الله الدنيا ما التفت الى من عن يمينه وشماله ، اشتغالا بالله تعالى وبخدمته » ..

أما مواريث المحبة فيوضحها شيخنا قائلا :

« كنت مارا فى بعض المــدن ، فرأيت نفســين من الزهاد والسياحين فى الأرض ، فقال أحدهما للآخر :

« يا أخي !.. ما ورث أهل المحبة من محبوبهم ؟.. فأجابه الآخر ، ورثوا النظر بنور الله تعالى ، والتعطف على أهل معاصى الله ، قال : فقلت له : كيف يعطف على قــوم قــد خالفوا محبوبهم ، فنظر الى ثم قال :

مقت أعمالهم ، وعطف عليهم ليردهم بالمواعظ عن أفعالهم ، وأشفق على أبدانهم من النار .. لا يكون المؤمن مؤمنا حقــا حتى يرضى للناس ما يرضى لنفسه ، ثم غابوا فلم أرهم » ..

والمحبــون زوار الرحمن ، ويصف ابراهيم بن أدهم فى أسلوب جميل ، النعيم الذى ينتظرهم فيقول :

« بؤسا لأهل النار ، لو نظروا الى زوار الرحمن قد حملوا على النجائب يزفون الى الله زفا ، وحشروا وفدا ، ونصــبت لهم المنابر ، ووضعت لهم الكراسى ، وأقبل عليهم الجليل جل جلاله بوجهه ليسرهم ، وهو يقــول :

« الى عبادى ، الى عبادى ، الى أوليائى المطيعــين ، الى أحبائى المشتاقين ، الى أصفيائى المحزونين .. ها أنذا .. عرفونى من كان منكم مشتاقا أو محبا أو متملقا (١) فليتمتع بالنظر الى وجهى الكريم ، فوعزتى وجلالى لأفرحنكم بجوارى، ولأسرنكم

(١) متملقا الى الله أى يفعل ما يحب الله سبحانه

بقربى ، ولايبيحنكم كرامتى ، من الغرفات تشرفون ، وتتكئون على الأسرة فتتملكون .. تقيمون فى دار الكرامة أبدا لا تظعنون تأمنون فلا تحزنون ، تصحون فلاتسقمون ، تتنعمون فى رغد العيش لاتموتون ، وتعانقون الحور الحسان فلا تملـون ولا تسأمون ، كلوا واشربوا هنيئا ، وتنعمـوا كثـيرا بما أنحلتم الأبدان ، وأنهكتم الأجساد ، ولزمتم الصيام ، وسهرتم بالليل والناس نيـام » ..

واذا نظرنا الآن الى الصـفات التى تؤهل المؤمن لحب الله سبحانه ، فان منها : الصبر ، والله تعالى يقول :

« والله يحب الصابرين »

ومنها التقوى ، يقول تعالى :

« ان الله يحب المتقين »

ومنها الاحسان ، يقول تعالى :

« ان الله يحب المحسنين »

ومنها طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وحسن اتبـاعه ، يقول تعالى :

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لـكم ذنوبكم) ...

خاتمة

ان شخصية كشخصية ابراهيم بن أدهم لا يتأتى أن تكون الا شخصية سعيدة من جانبين :

١ ـ من جانب المجتمع الذى يعيش فيه فقد سالمه ابراهيم ابن أدهم فى الجانب الذى يثير الأحقاد والخصـــومات : وهو جانب الدنيا ، فسالمه المجتمع ، وعاش ابراهيم بن أدهم لا ينغصه منغص من زاوية المادة .

وسار ابراهيم بن أدهم فى الدعوة الى الله معتمدا على القدوة الحسنة أكثر من اعتماده علي الزجر والتأنيب ، وكيل المواعظ المعنفة ، فاقتدى به الكثيرون واتخذوه مثلا كريما يحتذونه .

وسار ابراهيم بن أدهم فى هدايته للناس على طريق الرفق ، فكانت هدايته تتسم بالرفق والرقة ، وأخذ الأمور على ماأحب الله للواعظ بقوله لموسى وهارون عليهما السلام حينما خافا من فرعون أن يفرط عليهما أو أن يطغى :

« فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى (١) » .

---

(١) طه آية : ٤٤

ولم يكن ابراهيم بن أدهم يسير فى هدايته للناس على جهل، كلا ، وانما تعلم وتثقف ودرس سيرة رسول الله صلى الله عليـــه وسلم دراسة مستفيضة وسار على نهجه وفى سنته ممتثلا قوله تعالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا (١) » .

فلما رأى نفسه على بصيرة من أمر الدين والدعوة أخذ فى الدعوة الى الله بسلوكه وبقوله الرفيق ، وكان من هؤلاء الذين يتابعون الرسل فى الدعوة الى الله والذين يدخلون فى نطاق من يقول الله تعالى عنهم :

« الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشـــون أحدا الا الله وكفى بالله حسيبا (٢) .

وهو لم يبدأ بذلك حتى كان داخلا فى أتباع رســـول الله صلى الله عليه وسلم الذين يقول القرآن عن رسول الله وعنهم :

« قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين (٣) » .

---

(١) الأحزاب آية : ٢١
(٢) الاحزاب آية : ٣٩
(٣) يوسف آية : ١٠٨

وكان ابراهيم بن أدهم يخالط الناس وينبسط اليهم من أجل تحبيبهم فى الهداية ، ومن أجل أن يسير بهم الى أبواب المغفرة .

يقول الفريابى :

سمعت رجلا قال للأوزاعى : أيهما أحب اليك ؟ ابراهيم بن أدهم أو سليمان الخواص ؟ قال :

« ابراهيم بن أدهم أحب الى ، لأن ابراهيم يخاطب الناس وينبسط اليهم » .

وقدره المجتمع من أجل ذلك أيضا ، فكانت صلته بالمجتمع صلة صاحب الخير الذى يبشر به أينما حل ، يبشر به بسلوكه وبعلمه .

أما الجانب الآخر الذى جعل منه سعيدا فى حياته فهو جانب صلته بالله :

لقد دخل ابراهيم بن أدهم المعركة مع الشيطان ومع نفسه وهواه مصمما على الانتصار بتوفيق الله ، ولجأ الى الله فى استماتة ، وفى ذلة وعبودية وانكسار ، وسهر الليالى متعبدا ضارعا ، وصام الأيام والشهور راجيا ، وأحب العبادة وأنس بربه ، واستقامت له العبودية ، فأعلن عن ثمرة كل ذلك قائلا فى شكر لله وحمد له :

« نحن فى نعيم لو علمه الملوك لجالدونا عليه بسيوفهم »

ولم يكن هذا النعيم قصورا ، أو جوارى ، أو ثراء ، أو جاها دنيويا ، أو رئاسة ، كلا ، وانما السكينة تنزلت عليه ، وهو :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه »

وهو : « يحبهم ويحبونه »

وهو : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانو يعملون(١)»

وهو : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم (٢) » .

وهو : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم (٣) » .

ولقد قدره معاصروه ، وقدره المؤرخون .

---

(١) النحل آية : ٩٦

(٢) فصلت آية : ٣٢

(٣) يونس آية : ٦٢ ، ٦٣

يقول صاحب الحلية :

« ومنهم الحـازم الأحزم ، والعازم الألزم ، أبو اسـحاق ابراهيم بن أدهم ، أيد بالمعارف فوجد وأمد بالملاطف فعبد ، كان عن المقطوع والمرذول متباعدا ، وبالمرفوع والموصول متشاغلا

كان شرع الرسول نهجه ، واختياره عليه السلام مرجعه .

ألف الميمون الموصول ، وخالف المفتون المخذول »

ويتابعه صاحب الكواكب الدرية فيقول :

« الحازم الأحزم ، العارف الأعزم ، كان عن المقطوع المرذول ذاهلا ، وبالمرفوع الموصول متشـاغلا ، وكان شرع الرسـول منهاجه ، واختياره عليه الصلاة والسـلام مزاجه ، ألف الميمون الموصول ، وخالف المفتون المخذول » ا هـ

ومات بالجزيرة سنة اثنين وستين ومائة ، وحمل فدفن بصور ، وقبره بها مشهور .

وقال ابن عساكر :

غزا فى البحر فمات فيه فدفن فى بعض جزائر البحر فى بلاد الروم ، رضى الله تعالى عنه ورحمه رحمة واسعة .

الحمد لله أولا وآخرا

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين .

فهرس

الموضوع	رقم الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧١/٥٧٣٩

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسي ١١١٧ شارع كورنيش النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٥٥/ ٧١٠٥٨ تلغرافياً : يانشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٤٥٥٨٩/ ٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القاهرة

٣٦ شارع شريف	ت : ٤٠٠١٢	١٩ شارع ٢٦ يوليو	ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابى	ت : ٤٦٣٨٣	٢٢ شارع الجمهورية	ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان	ت : ٢١١٨٧	الباب الأخضر بالحسين	ت : ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول	٢٢٩٢٥	الجيزة : ١ ميدان الجيزة	ت : ٨٩٨٣١١
دمنهور : شارع عبد السلام الشاذلى	٢٦٠٥	المنيا : شارع ابن خصيب	ت : ٤٤٥٤
طنطا : ميدان الساعة	٢٥٩٤	اسيوط : شارع الجمهورية	ت : ٢٠٣٢
المحلة الكبرى : ميدان المحطة	٤٢٧٧	اسوان : السوق السياحى	ت : ٢٩٣٠
المنصورة : أول شارع الثورة	٣٨٦٤		

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع – بيروت – شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة
العراق : الشركة القومية للتوزيع – بغداد – ميدان التحرير – عمارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحتسب – عمان
ليبيا : محمود عارف الشويهدى – طرابلس
اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس – جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج – تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ – ٤٤ الشارع الملكى – الاحباس – الدار البيضاء
هولندا : مكتبة بريل – ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
فى خدمة القارئ العربى

الهيئة المصرية العامة للكتاب